

سنة
مئة
السات
شهر

تاريخ دور التاريخ العصرية الصهيونية

خالد القشطي

مكتبة الممتدين الإسلامية





الجزء التاريخي
للعضوية الصهيونية

مكتبة المفتدين الإسلامية



جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساحة الجزيرة - ط ١ / ٧٩٠٠٠٠
مرفأ - موكيال - بيروت - ص.ب. ١٠٥١٦ / بيروت

الطبعة الأولى

١٩٨١

خالد القشطيني

الجدور التاريخية للعدصرية الصهيونية

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مكتبة المهتدين الإسلامية



مقدمة

تعريف آخر للعنصرية ؟ إن الكاتب مضطر إلى هذه البداية طالما كان يخاطب جمهوراً عربياً . والسبب هنا هو ان العرب من أقل الشعوب خبرة ودراية في هذا الموضوع ، إذ لم يسبق لهم بصورة عامة أن ساموا هذا النوع من الاضطهاد لغيرهم أو عرضوا أنفسهم لنيره . الدين الذي خرجوا به إلى العالم ، الدين الاسلامي ، يؤكد ضمناً وصراحة ان لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وإذا كان الموقف من الزواج المختلط من المواقف الرئيسية التي تكشف عن ميل الانسان إلى العنصرية أو عدم ميله ، فإن إقدام العرب ، على الزواج بالغير يوضح بجلاء بعد النفسية العربية عن المزاوالات العنصرية . وربما كان تنوع بشرة وسماء العرب من اللون الأبيض والأشقر في جهات الشام إلى اللون الأسود القاتم في جهات حضرموت والسودان من العوامل الاضافية التي منعت الذهنية العربية من تطوير أي فكر عنصري .

ونرجو ألا نغالي إذا قلنا ان حركة القومية العربية المعاصرة جاءت

بالحركة القومية الوحيدة التي لم تبين وحدة قوميتها على أسس رابطة الدم ^(١) أو وحدة العنصر . وهكذا نجد مثلاً حزب البعث العربي الاشتراكي ، وهو أحد الأحزاب الرئيسية في هذا الميدان ، يؤكد بأن دستور الحزب لا يقتصر الانتماء الى تنظيم الحزب على أساس الدم . فلكل من يؤمن بمستقبل العرب ويناضل من أجل الأمة العربية ان ينتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي . . .

ولا بد أن نشير بأن الاطار اللاعنصري الذي تبرز الحركة القومية العربية من خلاله في هذا العصر له أصوله اللاعنصرية في التراث العربي القديم فليس هناك في أدب العرب في عز مجدهم ما يكشف عن فلسفة عنصرية . وطالما أغدق الرحالة العرب بالاعجاب بما شاهدوه من حضارات افريقيا البدائية وامتدحوا ممالكها وحصروا انتقاداتهم على شذوذها عن جادة الاسلام كعري النساء مثلاً . ^(٢) .

وينبغي ألا يعمينا هذا عن بعض الممارسات العنصرية في الحضارة العربية ومنها مثلاً مسألة كفاءة الزوج الشرعية ، ولكن هذا ليس بالأمر الجلل فلا بد من الاعتراف بأنه لم ينج أحد من البشر من شكل أو آخر من التفرقة العنصرية . فبمجرد قولك انك تفضل الشقراء على السمراء أو العكس مثلاً تقوم بتمييز عنصري ما . وتجد نفسك تفعل ذلك أيضاً عندما تقول ان الالمان او الانكليز شعب ذكي متفتح للاختراع أو الابتكار . — والحقيقة هي اننا جميعاً قد اعتدنا على غرض النظر عن الجانب الايجابي برمته من التمييز العنصري القائم على المدح وإعلاء الشأن . وهكذا نجد العالم الغربي يثور سخطاً عندما يشير أحد إلى اليهود بكونهم خداعين واستغلاليين وأنانيين ولكن لا اعتراض هناك عندما يصفهم أحد بأنهم قوم أذكاء ومجدون

(١) يقصد بها في هذا البحث الارتباط عن طريق الوراثة .

(٢) الموسوعة البريطانية ، العنصرية .

في العمل . ليس هناك أي فرق علمي بين القولين وكلاهما ينطلقان من أساس تمييزي عنصري .

وبالإضافة إلى ما ذكر نجد هناك من يرفض رفضاً قاطعاً الاعتقاد بأي فكرة عنصرية ويشمئز من أي نظرية تؤدي إلى التفرقة بين أجناس البشر ، ولكنه يسلك في حياته اليومية سلوكاً قائماً على التمييز بين الأجناس ، ونجد خير مثال لهذه الفصيلة في المواطن الانكليزي الذي ما زال يتنكر لحزب الجبهة القومية ويشمئز من ذكر أي فكرة عنصرية ولكنه يعتبر زواج ابنته برجل باكستاني أو ناييجيري كارثة عظمى لا تقل هولاً عن نزول عائلة هندية في البيت المجاور له . وامام هذه التفرقة العملية نجد التفرقة النظرية التي مارستها مثلاً إيطاليا في عهد موسوليني . فبرغم الزاوية العنصرية التي انطوت عليها الفكرة الفاشية ، وبرغم كل الحاح هتلر على موسوليني ، استمرت إيطاليا في تجاهل الاطار العنصري وماطلت في اضطهاد اليهود والعناصر غير المرغوب فيها .

ولهذا دأب الباحثون الاجتماعيون في الغرب على التمييز بين التمييز ، فأطلقوا على التمييز العملي كلمة Racialism والتمييز النظري كلمة Racism .

وسنعمد في هذا البحث إلى تسمية الأول بالتمييز العنصري والثاني بالعنصرية . وما يلاحظ ان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة قد احتاط للموضوع فادان الصهيونية من كلا الجانبين فنص على « ان الصهيونية هي شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري » .

وإذا كان العرب كغيرهم من بقية الشعوب قد مارسوا هنا أو هناك بعض الأصناف الخفيفة من التمييز العنصري فانهم كانوا وظلوا ساذجين تمام السذاجة بالنسبة للعنصرية وكل ذلك الكيان الفلسفي والنظري الذي بنته أوربا وكان له وقعه المحتم على الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية . وقد وصل ذلك الفكر العنصري حداً من الشمول والشيوع والتكامل في تلك الحقبة ما وصل إليه الفكر الاشتراكي في

الحقبة التي تلتها - أي بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية . فكما أصبحنا في أيامنا هذه نجد أكثر الأحزاب والحركات السياسية رجعية تدعي لنفسها بالاشتراكية وتلحق باسمها صفة الاشتراكية ، كانت الحركات السياسية القومية في القرن التاسع عشر تعتد بالعنصرية . ويجدر بالذكر هنا ان مسودة تصريح بلفور الرابعة المعروفة بمسودة ملنر - اميري قد تحدثت عن « إقامة وطن قومي في فلسطين للعرق اليهودي » (٣) .

ومما يلاحظ في هذا الصدد ان حركة القومية العربية وصلت مرحلة نضوجها بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية في حين وصلت القومية اليهودية تلك المرحلة قبل الحرب العالمية الأولى . وكان من آثار ذلك تلون الصهيونية بالفكر العنصري لتلك المرحلة وتلون القومية العربية بالفكر الاشتراكي للمرحلة التالية لذلك .

لقد كتب الكثير عن التمييز العنصري الذي مارسه إسرائيل ضد السكان العرب وقدمت أمثلة عديدة على عنصريتها . بيد أن كل ذلك موضوع هامشي . صلب الموضوع يقوم على إيمان الصهيونية بالعنصرية وتفاوت البشر فزيولوجياً في القابليات والقيم مثل تفاوتهم في الهيكل والسياء ... الخ . ولا يتوقف الموضوع على حسن أو سوء معاملتهم للعرب . ومع ذلك وقع انصار الجانب العربي في هذا الخلط فوجدنا مثلاً منظمة يوروبيا (لجنة التنسيق الاوربية لجمعيات الصداقة مع العالم العربي) تقول في معرض دفاعها عن وجهة النظر العربية « ان واضعي القرار في نيويورك قد أوضحوا بجلاء تام ان مقصدهم لم يتعلق بالصهيونية بصفقتها المجردة وإنما بآثارها العملية - بالصهيونية كما تم تطبيقها في الميدان في إسرائيل . » (٤) .

وقد وقع بمثل ذلك بعض الاعلاميين العرب أيضاً . ان التصرفات

(٣) انظر L . Stein ، تصريح بلفور ، لندن ، ١٩٦١ ، ص ٦٦٤ .

(٤) يوروبيا ، باريس ، الصهيونية والعنصرية .

الارتجالية أو البراغمية القائمة على التمييز العنصري تصرفات يمكن تصحيحها بالنقد أو تغييرها بتغيير الظروف الموجبة لها ولكن المشكلة تصبح مستعصية عندما تقوم هذه التصرفات على إيمان فكري وروحي له أبعاد الطويلة وجذوره العميقة . فالعنصرية كالاشرائية في جيلنا هذا تماماً - فلسفة تتوغل في كافة نواحي المجتمع وفعالياته ونزعاته من السياسة والاقتصاد إلى الفن والأدب .

وكان مثل ذلك الايمان الفكري والروحي هو الذي أدى في الأخير إلى المذابح الدموية وغير الدموية التي نفذتها النازية في أوروبا كخاتمة منطقية للفصول النظرية للفكر العنصري . وقد أدت أهوال الحكم الهتلري إلى إسدال الستار على تلك الفلسفة البشعة فأخذ الساسة والكتاب يتصلون منها ويعتبرون وصفهم بها من باب القذف والتشهير .

هكذا نزلت العنصرية من عرشها وأصبحت كلمة قدرة استشاط لذكرها الصهاينة بعد سنين من الاعتزاز بها . ولربما استشاطوا غيظاً وامتعاضاً في أوائل هذا القرن لو ان أحداً تقدم فنفى عنهم صفة العنصرية . وإذا كان علينا ان نتلقى العظات والحكم من السنة القضاة فان ما قاله رئيس القضاة كستر في إسرائيل في دعوى شاليت برعاية ابنائها وما أنطوت عليه من اعتبارات جنينية تتعلق بالتركيب الفزيولوجي للأولاد، فبعد ان اشد رئيس المحكمة بعنصرية القومية اليهودية وارتباط العنصر اليهودي بابراهيم واسحق ويعقوب قال « ان من الصعب في هذه الأيام ان يتكلم الانسان عن العرق ولكن هذه الصعوبة هي أساساً صعوبة لغوية لأن النازيين أعطوا كلمة « عرق » رائحة قدرة . بيد أن علينا ألا نسمح للنازيين بأن يحولوا عقولنا عن المغزى الصحيح لهذه الميزة كقوة موحدة تقوم على شعور الشعب بانتمائه إلى دم مشترك واحد » (٥) .

والواقع ان الأدب الصهيوني ظل يعج بالمفاهيم والاصطلاحات

(٥) ميدل ايست انترناشنال ، إسرائيل : الاساءة للدين اليهودي ، بقلم B . Shafi

العنصرية حتى الثلاثينات مثله في ذلك مثل معظم الحركات القومية الاوربية .

ان التكلم عن العنصرية الصهيونية سيظل ناقصاً ومشوشاً حتى تتجلى الصورة بوضعها تحت ضوء المصدر النظري للفلسفة العنصرية بإطارها العالمي ، فان الممارسات العملية للتمييز العنصري والفصل العنصري تتناول ظواهر قد يقع معظم البشر فيها بشكل أو بآخر كما أسلفنا . ومن السهل جداً تمييزها بإسنادها إلى ملابسات اجتماعية وحضارية وظروف خاصة ، ظروف حرب أو طوارئ مثلاً . وهذا بالفعل ما يقوم به دعاة الصهيونية وأصدقائهم ، ولكن إرجاع هذه الممارسات إلى أصولها وجذورها النظرية يقطع الشك في كنهها الحقيقي .

إن مثل هذا المسعى شيء جوهري في جيلنا هذا الذي ابتعد عن الجو العنصري الذي ساد عالم السياسة والفكر في القرن التاسع عشر فأصبحنا ننظر إلى العنصرية في ظواهرها السياسية والاجتماعية الواضحة كالتمييز في الأعمال والأجور والتعليم والإسكان والفصل بين الأعراق دون ان نخطر ببالنا انها كانت فلسفة وتطبيقاً يسري على كافة نواحي الحياة البشرية، فمثلاً ان اضطهاد الحزب النازي للفن الحديث واستهجانه لتبرج المرأة بالزينة وهيامه بالريف والغابات والطبيعة وتشككه في التنظيم الدولي والتآخي الأممي كلها مظاهر ترجع إلى الفلسفة العنصرية .

ومن الطريف ملاحظته ان الفكر العنصري ترعرع دائماً وأعطى كامل ثماره عند العرق الآري وارتبط بصورة رئيسية بتسلط هذا العرق على الشعوب الملونة في الجنوب، وعليه فلا مفر من دراسة الاستعمار الكولونيالي أيضاً لتفهم أبعاد العنصرية وجذورها . ولكن الأطراف من ذلك ان اليهود أعطوا الشعب الوحيد الذي تغنى بالعنصرية خارج إطار الأقوام الآرية وانفردوا بين كافة الشعوب السامية بهذا الاتجاه ومن ثم خرجت الصهيونية إلى العالم بما يمكن ان نسميه بالعنصرية السامية الآرية . وعليه يصبح من الضروري لنا ان نبحت الفكر اليهودي من ناحية والفكر الآري من ناحية أخرى .

الفصل الأول

عنصرية سامية

* لا شك ان الصيغة الأولية للفكر اليهودي كانت قبلية وحملت معها ذلك النوع البدائي من العنصرية الذي نطلق عليه كلمة « العنصرية القبلية ». ومن المؤلف والمتوقع أن تتلاشى هذه العنصرية وتنمحي بدخول أصحابها الحياة المركبة للمجتمع الحضري ، بيد ان المصير النحس الذي صاحب نشوء دولة بني إسرائيل ودمارها ووقوع أصحابها في الأسر أدى إلى تشويه في النمو الطبيعي لذهنية الأمة ، كان من آثاره تشرنقها حول نفسها وتفاقم شعورها بالخوف من الغير واضطهاد الغير . وقد واجه بنو إسرائيل مفرق طرق أثناء أسرهم في بابل وطرح أمامهم خيار الاندماج بالشعوب الأخرى أو الانكماش على النفس والتشبث بالعنصرية القبلية . وقد ناضل ارميا في الدعوة إلى الحل الانساني المتفتح وامتزاج اليهود ببقية المجتمع في الزواج والتعامل ، ولكن دعوته هذه قبرت في مهدها نتيجة دخول الفرس مدينة بابل ومساعدتهم لليهود في إعادة بناء دولتهم الخاصة بهم في فلسطين . وكان ان بقي البعض منهم في العراق متمسكين بدعوة ارميا الانسانية بينما

رحل الآخرون ممن ظلوا يهتدون بوازع العنصرية القبلية . وظل هذان الاتجاهان يلعبان دورهما في صياغة التاريخ اليهودي عبر العصور فتعطي الظروف السائدة الغلبة لهذا آنأ ولذاك آنأ آخر .

ولكن من الملاحظ بصورة عامة ان ظروف الاضطهاد المستمر التي أحاطت المجتمع اليهودي ساعدت على تقوية الجانب العنصري . وقد كرس عزرا حياته الفكرية لوضع أسس عنصرية للدين مما أصبح يعرف باسم « قوانين عزرا » . وقد أكدت هذه السنن على توارث الدم اليهودي وعدم الزواج بالغير والانفصال عن الزوجة غير اليهودية وترحيلها مع أولادها المختلطي الدم ^(٦) . وجرى التأكيد على ضرورة الختان كعلامة جسمية مميزة لبني إسرائيل .

وشاءت الظروف التاريخية ان تجعل من تعاليم عزرا السنة المتبعة في المجتمع اليهودي/حتى قيل لو ان الوصايا العشر لم تنزل على موسى لنزلت على عزرا . وراح رجال الدين والشرّاح ، تحت الضغوط الاجتماعية والسياسية يوسعون في تلك التعاليم ويعززون أساسها العنصري فاكسب التلمود والمشنة تلك النواحي التي استغلها المعادون للسامية في التشهير باليهود وبنواياهم ضد الاغيار^(٧) من ذلك مثلاً التأكيد على اليهود بعدم إيجار أملاكهم لغير اليهود في الأرض المقدسة ^(٨) ومعاملة الاغيار معاملة مختلفة في الأمور المالية ومنع بيع العقار لغير اليهودي في الأحياء اليهودية (الغيتو) وتحليل خرق حرمة البيت لانقاذ حياة يهودي وتحريم ذلك بالنسبة لحياة غير اليهودي .

✱ ولم تكن أحياء الغيتو اليهودية في الحقيقة من ابتكار الأمراء المسيحيين في القرون الوسطى وإنما جاءت في أكثر الأحيان استجابة لطلب زعماء

(٦) سفر عزرا ، العهد القديم ، ويصف هذا السفر هول الكارثة التي شعر بها عزرا عند اطلاعه على انتشار الزواج المختلط .

(٧) عبوده زاره ، طبعة لندن ، ١٩٣٥ ، ص ١٠٨ .

الطائفة . وفي هذه الأحياء المحاطة بسور عال جرى انفصال اليهود جسماً عن الغير .

وقد أشار الأستاذ ماكس فير ، العالم الاجتماعي الكبير ، إلى أن عزرا وضع بعد العودة إلى فلسطين ما يمكن تسميته ببرنامج عزل اليهود عن الآخرين^(٨) لم تكتفِ التعليمات الدينية بحظر الزواج بالغير وإنما حظرت على اليهودي حتى الأكل مع الغير . ووصل الفصل العنصري ذروته من الشمول والتكامل فغدا الاختلاط مرادفاً للشر والانحطاط لا في عالم الانسان وحسب بل وفي عالم الحيوان والنبات أيضاً فالحيوانات الهجينة غير مرغوب فيها والنسيج المختلط الغزل والزرع المختلط البذر والخبز المختلط الحب كله مكروه شرعاً^(٩) .

وقد شدد الحناق على اليهود ووضعت الصعوبات أمام الراغب في دخول الديانة اليهودية وفرضت عليه أحكام قاسية تبقى وأولاده خارج نطاق المجموعة اليهودية إلى أربعة أجيال . وتوسعاً بأحكام عزرا فقد اعتبرت المرأة المتزوجة بأحد اليهود في حكم المرأة العاهرة وتظل تعامل بهذه الصفة رغم اعتناقها الديانة اليهودية ، أو كما تقول انسكلوبيديا التلمود « كل امرأة غير يهودية تعتبر عاهرة حتى ولو لم تدخل في أي عملية جنسية »^(١٠) . وأثار هذا الموقف عدة ضججات سياسية واجتماعية في إسرائيل حديثاً^(١١) .

وكرس فقهاء التلمود أذهانهم لمسألة النغل أو ابن السفاح ، فوضعوا أدق القواعد في شأنه . وهي تحكم على العموم بالسفاح على كل انسان لم

(٨) اثبتت ضجة في إسرائيل عندما امتنع بعض الجمهور من السماح لطبيب باستعمال التلفون في يوم السبت لطلب الاسعاف وإنقاذ حياة شخص أصيب بنوبة قلبية وكان افريقياً . جويش كرونكل ٣ / ٦ / ١٩٦٦ .

(٩) M . Weber ، اليهودية القديمة ، لندن ، ص ٢٥٠ وبعده .

(١٠) الموسوعة التلمودية ، طبعة ١٩٥٣ ، ج ٧ ، ص ٢٣ .

(١١) عندما ذكر هذه الحقيقة في الكنيسة الاسرائيلي ، النائب المستقل أوري أفنييري ، ثارت نائرة النواب الآخرين عليه وامتنعت الصحافة المحلية والأجنبية من الإشارة إلى قوله . (انظر مقالة ب . شافي أعلاه) .

يولد من أمهات يهوديات لأربعة أجيال . وقد ترتب على مثل هذه الأحكام في أيامنا هذه ظهور ما يشبه محاكم التفتيش في إسرائيل وسفاراتها في الخارج ولكن لا للتحقيق في عقيدة الشخص وإنما في سلالة .

ومن الأمور الشائعة التردد في الصحافة اليهودية الهلع من أي ارتفاع في عدد الزواج المختلط واعتناق اليهودية بل كان ذلك من الأمور التي اعتبرت سبباً مهماً لتبرير إقامة إسرائيل لتخليص اليهود من مغريات الزواج المختلط في الشتات . ووجه الصهاينة اللوم إلى قادة الكنيس الاصلاحى واليهودية الليبرالية لتساهلهم في هذا الميدان . وقد سارع هؤلاء القادة إلى إنكارتها ونهم في هذا الصدد وأكدوا على تشبثهم بتعاليم نقاء الدم اليهودي . بيد ان سلطات تل ابيب أصرت رغم ذلك على تجاهل الزواج والتهود الذي يتم حسب طقوس الكنيس الليبرالي وليس حسب القيود الارثوذكسية اليهودية وذلك عند تطبيقها قانون الرجوع في حق المهاجرين إلى إسرائيل ومسألة اعتبارهم يهوداً أو غير يهود^(١٢) .

الشواهد في هذا المجال عديدة ويكفي ان نشير منها إلى قضية اللاعب الامريكى جيم بترائت ، بطل كرة السلة الذي تعاقدت معه فرقة مكابي تل ابيب . لقد اتضح ان اتحاد كرة السلة الاسرائيلي لا يسمح لغير اليهود بالمشاركة في فرق الاتحاد مما اضطر اللاعب الامريكى إلى اعتناق اليهودية . ولكن ذلك لم يحل المشكلة نظراً لأن القوانين الاسرائيلية لا تعتبر الانسان يهودياً بمجرد اعتناق الديانة الموسوية . وهنا أشار جيم بترائت إلى أن جدته كانت يهودية . وما أن قام الدليل على ذلك حتى سارت الأمور على مجراها في الأوساط الرياضية الاسرائيلية^(١٣) .

(١٢) انظر رسالة جون رينز ، رئيس المجلس الاوروبى للاتحاد العالمى لليهودية التقديمية في جريدة الجويش كرونكل ١٥ / ٢ / ١٩٧٤ .
(١٣) معاريف ١٨ / ١١ / ١٩٧٦ .

والحقيقة ان قراءة مثل هذه الأحكام والسنن حسب الخطوط التي اعتمدها الصهيونية تترك القارئ بانطباع واضح هو ان التراث الذي وجدته الحركة الصهيونية في أيديها يفوق حتى النازية (باستثناء التصفية الجسدية) في التمييز العنصري . وقد عبر بشجاعة الأستاذ دارلنغتن عندما راح يناقش موقفه العنصري في الأيام الأخيرة فقال في مقابلة له مع مراسل صحيفة الساندي تايمس « حسناً ، لقد اعتبرني الجميع واحداً من العنصريين إلا اليهود الذين يتميزون بكونهم عنصريين في ذاتهم ويتفقون مع أفكارهم تمام الاتفاق » (١٤) .

ولكن مثل هذا الانطباع خاطيء ومغال إذا ما أخذناه على علته وبصورة مطلقة . لقد ظل الجانب الانساني والاممي يسير جنباً إلى جنب مع هذا التيار ويغلبه بين الحين والآخر . واعطت المدنية الاسلامية مثل هذه الفرصة للتيار الأممي وكان من ثمارها ظهور العالم الاندلسي موسى بن ميمون . وفي ظروف التعايش الكتابي للاديان الموحدة الثلاثة ، اعترف ابن ميمون بإمكانية عيش اليهود تحت ظل حكم الاغيار من المسلمين أو المسيحيين (الذين لم يعتبرهم وثنيين) . ومن هذا المنطلق ، دخل ابن ميمون في خدمة الخليفة الأموي في الأندلس ومن ثم في خدمة صلاح الدين الأيوبي في مصر . وقد كتب قائلاً بأن للأتقياء من كافة ملل الأرض نصيبهم في دنيا الآخرة طالما آمنوا بذلك القدر من الذات الالهية الذي يمن به الله عليهم .

وكان هذا هو الخط الذي سار عليه يهود دولة الاسلام فتعايشوا بسلام مع اخوانهم من مسلمين ومسيحيين . ولكن هذه الروح المتحررة لم ترق لليهود أوربا (الذين وصفهم ابن ميمون بدوره بالبربرية والتأخر كما سنذكر فيما بعد) فاتهموه بالهرطقة وشكوا أمره إلى الأمراء الافرنج طالبين تحريمه

(١٤) ساندي تايمس ٢٧ / ٨ / ١٩٧٨ .

بدخول الغيتو لئلا أو الخروج منه .
 ويقف على حراسها حارس من السلطة المستحقة . ولا يسمح لأي أحد
 من الخارج له باب واحد أو أبواب قليلة تغلق عند المساء ويقتض صناع
 كل فقد أن الغيتو مجموعة من الأراضي المكتظة بالدور والداركن تحتها جدار
 الدراسة التي كتبها ونشرها ثيودور هرتزل وأودعها فكرته الصهيونية . وعلى
 اسم (Judenstat) ومن المصادقات الطريقة أن يكون هذا أيضاً بالصيغة اسم
 «دولة اليهود» . وفي مدينة فرايبورج يسمون الغيتو بالعلم «دولة اليهود»
 الصهيونية والحرية الفلسطينية في اليهودي للوجود البريطانيون اليهودي يقول بأنهم
 كان عبارة عن دولة في داخل دولة (التي هي دولة) وحدها
 لقد كتب الكثير عن حياة الغيتو وتركته الاجتماعي ولكننا نذكر أن

. شبي اللان الاوروبية الرقسية .
 مدينة السندقية في عام ١٥١٦ ، وسرعان ما ظهرت هذه الاحياء المنزلة في
 وكان من أول من عمد إلى ذلك الايطاليون فأسسوا أول غيتو في
 وفرضها عليهم المستحقون في أوروبا جواراً من الشوارع التي افترضها
 حياة الغيتو (الاحياء اليهودية) التي عاشها اليهود في القرون الوسطى
 والصليبية . ومن أهم البؤرات التاريخية في تعزيز المنصرية الصهيونية
 القلت إلى الأحياء إلى أكبر الأحياء في أذربايجان ومعظمها من الأحياء
 صور مختلفة من الاصلانية واللاوطنانية عبر القرون الوسطى إلى اليهود
 في العالم أن هذه الحقلية الايديولوجية قد اكتسبت أبعاداً عملية في

. (١٨) الأثنين تراوح ضروري ما يقتضي
 الكرامة الخاصة التي يتمتع بها بنو إسرائيل من ناحية وأرض فلسطين من ناحية
 المتأخرة هي طبعاً تربة الأرض المقدسة . وبعد بونديتيني دعوته على أساس
 الكرم المتأخرة وكيف أن كلهم يحتاج إلى تربة ممتازة لنموها . هذه التربة

وجرت العادة على منح السلطة المسيحية عقد امتياز خاص للسلطة اليهودية في إقامة حكم داخلي مستقل ضمن الغيتو . وقلما شغلت السلطة المسيحية نفسها بما يجري فيه ، إذ تركت كافة الشؤون العامة بيد الحاخامين . وكانوا يقضون في كل شيء حسب الشريعة التلمودية . وبالنظر لضيق الأرض في هذا الحي ، فقد عمد أصحاب العقارات إلى الارتفاع بدورهم إلى الأعلى فالأعلى والبناء في كل مكان دون أي اعتبار للصحة أو الراحة أو اللهو . وساعد هذا التناكب في العيش على وضع سنن عنصرية صرفة ضمن ما سمي بشريعة الهازاكه (شريعة الملكية) . ومن ذلك تحريم بيع عقار اليهودي لغير اليهودي داخل الغيتو . وللحيلولة دون استغلال أصحاب الأملاك المسيحيين لأزمة السكن ، حرم على اليهودي ان يتقدم لاستئجار ملك يسكنه يهودي آخر أو استئجار ملك أصبح خالياً نتيجة طرد شاغله من قبل المالك المسيحي . وشملت أحكام الهازاكه الأعمال والأموال المنقولة أيضاً فحرمت على اليهودي ان يشتري اللحم والمواد الغذائية من الاغيار إذا كان هناك يهودي يقوم ببيعها . وإذا كان يهودي يقوم بعمل معين فلا يجوز السماح لشخص من الاغيار ان يحل محله وهلمّ جرّاً (١٩) .

وبالطبع لم يكن هناك أي مجال للزواج بالغير . وعندما تضاف وتجمع كافة هذه الأحكام نخلص إلى طريقة في الحياة تقوم أساساً على التمييز في كل خطوة بين أبناء الغيتو وأبناء الغير . وقد وصفت الموسوعة البريطانية الحصيل النفسي لمثل هذه الحياة بأنها أدت إلى « حد وضيق في التفكير » (٢٠) . في وسط الغيتو ، وجد اليهودي نفسه دائماً يعيش في إطار « نحن والغير » . وما يذكر ان المسيحيين لم يفرضوا نظام الغيتو على اليهود في سائر الأحوال كعقاب عليهم أو إجراء وقائي ضدهم وإنما تقدم رؤساء اليهود في

(١٩) انظر Hazakah في انسكلوبيديا جودايكا .

(٢٠) انظر Ghetto في الموسوعة البريطانية .

كثير من الحالات بأنفسهم إلى السلطات ملتجئين إقامة الغيتو . وكانت لذلك أسباب مختلفة منها الاطمئنان على سلامة اليهود من هيجان الاغيار وانتقامهم، ومنها توفير رقعة جاهزة لسكن لليهود حيث لم يسمح لهم بالاقامة . ولكن الأهم من كل ذلك في رأينا هو رغبة الحاخامين في السيطرة على رعيتهم وإخضاعهم لأحكامهم الدينية . وبقي كثير من أحياء الغيتو قائماً وخاضعاً للسلطة الدينية رغم تقويض أسوارها بعد الثورة الفرنسية، وبقيت في روسيا بكامل كيائها الاداري الرسمي حتى اندلاع الثورة البلشفية . ومن هذا الغيتو الروسي والبولوني جاء قادة الحركة الصهيونية وزعماء إسرائيل .

لقد كان من المحتم للظروف المشار إليها والتعاليم الكامنة وراءها أن تؤدي إلى نظرة وطريقة في الحياة تقوم على التمييز والفصل، بيد ان هذا التمييز ظل محصوراً في نطاق السلبية والانعزالية والانطوائية . وبقي الأمر كذلك حتى أخذ التاريخ مجرى آخر بظهور الرأسمالية وما انطوت عليه من تأكيد على المال والكسب والفردية من ناحية وعلى الحرية وانعتاق الأقليات من ناحية أخرى . وقد فتح ذلك الباب على مصراعيه لاستفادة اليهود من خبراتهم وقدراتهم المالية والثقافية فوجد زعماءهم أنفسهم بمثابة الصفوة المفضلة فعلاً .

وبعين الوقت ظهر الفكر العنصري في أوروبا الوسطى ليعطي الأفكار القديمة صيغاً معاصرة مستوحاة من التنظير العلمي فاكتملت الدائرة . وحن لنا الآن أن نتناول بالبحث موضوع هذه الصيغ المستوحاة من العلم الحديث والمنبعثة من التطورات الخطيرة التي ظهرت على مسرح القارة الاوربية .

الفصل الثاني

العنصرية الآرية والكولونيلية

هذه هي المدرسة الرئيسية التي تمثل الفكر العنصري في تاريخ الانسان . وبقدر ما تبدو العنصرية شاذة ومفروضة من الخارج بالنسبة لفكر اليهودي ، نجد لها طبيعة ومتوقعة بالنسبة للأقوام الآرية . لقد سكنت هذه الأقوام بصورة عامة شمال العالم القديم وتمركزت في العصور الأخيرة في أوروبا الشمالية حيث اكتسب أبنائها صفات فيزيولوجية (القامة الطويلة ، الأنف الدقيق ، البشرة البيضاء ، الشعر الأشقر المسترسل ، العيون الزرقاء . . . الخ) تثير في المشاهد على الفور شعوراً بالاختلاف والتباين عند مقارنتها بهيئة الأقوام الجنوبية ولا سيما العرق الزنجي (القامة القصيرة ، البشرة السوداء ، الشعر الأسود الجعد ، العيون السوداء ، الأنف المنبسط . . . الخ) . وحدث بوجه عام ان ارتبط اللون الأسود في أذهان البشر بالموت والحداد والكوارث والشر والخبث والشيطان وكل ما هو سيئ ، بينما ارتبط اللون الأبيض بالبراءة والنور والحياة والصفاء والخير وكل ما هو حسن . ربما يعود جزء من ذلك إلى ظاهرة الليل والنهار .

ومن المؤلف في آداب الشعوب - بما فيها الشعوب البيضاء - ان نجد الشعراء يتغنون بالبشرة البيضاء والشعر الأشقر ، ويكفي ان نشير هنا إلى شكسبير . ومن التعليقات الساذجة لهذه الظاهرة ما ذكره عباس محمود العقاد بارتباط الجمال بالحرية . البشرة البيضاء تسمح للنظر - حسب قوله - بالشعور بحركة الدم يجري بحرية مطلقة تحت البشرة .

الأهم من كل ذلك ، هو ان الشعوب الآرية سكنت مناطق باردة فرضت عليها الحركة والتزود بالطاقة واختزانها جسمىً والاعتماد على الروية وبعد النظر والتخطيط لمواسم الثلج الطويلة وتقوية ملكة العقل وقوة الصبر على حساب العاطفة والانفعال . وبعين الوقت دفع البرد المتواصل شعوب هذه المناطق إلى السعي وراء الشمس وما يتبعها من فيض في المواد الغذائية بالاغارة على أقوام المناطق المدارية والاستوائية من حين لآخر . ولا شك ان شعار السياسي الذي تبنته أوروبا في عهود الاستعمار بالبحث عن مكان تحت الشمس ومنفذ إلى المياه الدافئة يجسم حقيقة الموقف الجغرافي الانثروبولوجي . قلما سمعنا عن غارات أو حملات استعمارية من المناطق الحارة إلى المناطق الباردة . ولربما نلمس هذه الظاهرة حتى في عالم الحيوان حين نجد طيور وأسماك المناطق الباردة تكتسب قدرات عجيبة في الملاحاة والحساب الالكترونى واختزان الطاقة لتقوم بهجراتها العجيبة عبر نصف الكرة الأرضية إلى حيث الشمس والدفع .

وقد قامت هذه الشعوب بحملتين استعماريتين رئيسيتين في التاريخ . الأولى باكتساح القبائل الآرية لمنطقة الهند من الشمال وإخضاعها سكانها الأصليين الدراويدين ، والثانية في الاستعمار الكولونيالى مؤخراً . ووجد الآريون في كلتا الحالتين أسهل تحليل وتبرير لظاهرة تغلبهم على السكان الأصليين ذوي البشرة السوداء أو السمراء بربط ذلك بالفروق الفيزيولوجية للطرفين . وفي كلتا الحالتين ، كانت النتيجة ظهور فلسفة عنصرية تحكمت في كل شيء ، الهندوسية في الهند والتبوتونية في أوروبا . وما

يلفت النظر أن الهندوسية قسمت المجتمع إلى طبقات (أو ألوان كما سميتها بصراحة) تقوم على مدى اقتراب أو ابتعاد أصحابها من البشرة البيضاء . وقصرت الهندوسية منزلة الشرف على البراهمين والكصاتريين والفيزيين ، وكلهم من الآريين الدخلاء .

وقد ظهرت في القرون المتأخرة عوامل أخرى دفعت الشعوب الاوربية إلى الزحف جنوباً واكتساح عالم الشعوب الملونة . وكان من أهم هذه العوامل الانفجار السكاني في القرن التاسع عشر الذي أدى فيما أدى إليه ، إلى ظهور ما يسمى بمدرسة الاصلاح الكولونيالي التي ازدهرت بصورة خاصة في انكلترا . لقد وجد أصحاب هذه المدرسة ان أحسن حل لمشكلة البطالة والفاقة المتصاعدة هو في نقل السكان الفائضين إلى المستعمرات . ووجد المفكرون الكولونياليون أنفسهم في مأزق أخلاقي ونفسي لا خلاص منه بدون الالتجاء إلى العنصرية . فلتطبيق المساواة بين الطرفين كان عليهم اما أن يرفعوا السكان الأصليين إلى مستوى المهاجرين الاوربيين أو أن ينزلوا بمستوى هؤلاء إلى مستوى السكان الأصليين . الحل الأول باهظ الثمن وبعيد المنال عملياً والحل الثاني يلغي الوازع الأساسي لعملية الاستعمار ذاتها ويقضي على الحافز للهجرة . الحل الوحيد الذي بقي في أيديهم هو قبول اللامساواة ومن ثم التمييز العنصري والبحث أثناء ذلك عن المبررات النفسية والايديولوجية للموقف .

وقد وجدوا هذا التبرير في تلك الظاهرة الخاصة بالعصر الحديث ، ونعني بها ظاهرة الهوة الشاسعة التي تفصل في كل الميادين بين المجتمع الغربي ، مجتمع الرجل الأبيض ، والمجتمع الشرقي ، مجتمع الرجل الملون . ولا شك ان الاختراعات والاكتشافات المدهشة التي قدر للانسانية ان تضعها في يد الرجل الأبيض توحى بسهولة عند النظرة العابرة السطحية بارتقاء هذا الرجل على الرجل الزنجي مثلاً . وهكذا ذهب عالم كبير مثل هربرت سبنسر إلى الاعتقاد بأن منجزات الانسانية ستبقى متوقفة على الرجل الأبيض . وأكد عالم انكليزي آخر ، سي . ديلك ، على رسالة الشعب

البريطاني ، العنصر المختار ، في تمدين شعوب المستعمرات التي لا تتمتع بأي فضيلة خلقية ^(١) . وما نظننا في حاجة إلى الاستشهاد باكداس الوثائق الاستعمارية التي تشير إلى تفوق الأوروبيين على شعوب المستعمرات وحاجة هذه الشعوب إلى إدارة الرجل الأبيض وهلمجرا .

بيد ان النزاع بين الاستعمار الغربي وشعوب العالم الثالث لم يتوقف عند هذا الحد بل تحول بعد قليل من الزمن إلى صراع بين الدول الاستعمارية مع بعضها البعض ، وكان لا بد لهذا النزاع من أن يأخذ بدوره مبرراته الايديولوجية . ان أول مقدمة لانتصار أي أمة في مثل هذا النزاع هو ان تؤمن بتفوقها على خصمها وبحقها في فرض إرادتها عليه . وأدى هذا إلى تعميق العنصرية الاوربية أكثر فأكثر فاكسبت شكلاً عدوانياً بين الدول الاوربية نفسها . وهكذا صرح المؤرخ الكبير الأستاذ هنريخ فون ترتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) مؤكداً أن الالمان يتحملون مهمة قيادة مصائر الشعوب الأخرى والتحكم بها . . . وعلى هذا الأساس كتب قائلاً « اننا نحن الالمان نعرف المانيا ونعرف فرنسا معاً . وعليه فاننا نعرف ما هو أصلح لسكان الالزاس مما يعرفه الالزاسيون أنفسهم » ^(٢) .

وسار الحزب النازي بوحى ذلك عندما راح يبرر الادعاءات الالمانية بالنسبة لبولونيا على أساس من تفوق الشعب الالمانى على السلافيين المتأخرين وأعطى النازيون لأنفسهم حق إعادة تنظيم أوروبا برمتها ضمن ما سمي بالنظام الجديد . وقد وجد بعض الباحثين ان النظريات العنصرية للقرن التاسع عشر استمدت وحيتها لا من النزاع بين العرق الأبيض في أوروبا والاعراق الملونة في افروآسيا وإنما من النزاع القومي بين الشعوب الاوربية ذاتها وبين مصالحها الاقتصادية الخاصة بها ^(٣) .

(١) C . A . Bodelsen ، دراسات في استعمار العهد الفكتوري الأوسط ، لندن ، ص ٧١ .

(٢) W . M . McCovern ، من لوثر إلى هتلر ، لندن ، ١٩٤٦ ، ص ٢٨٦ .

(٣) M . Banton ، فكرة العرق ، لندن ، ١٩٧٥ ، ص ٣٤ .

شعب ما زال يعيش في القرون الوسطى وتبعة الحكم العثماني المتأخر ومهاجرين من أوروبا وأمريكا يتمتعون بما تمتعت به مجتمعاتها من تطور . وتوصلت الوكالة اليهودية إلى نفس الحلول الكولونيلية ، أي الايمان بحق العنصر المتقدم حضارياً في السيادة على العنصر الأقل تقدماً وإعطاء العنصر الأول امتيازات توازي تقدمه على الثاني . وأخيراً فصل العنصرين عن بعضهما البعض . وبما لا بد من الاعتراف به بأن مثل هذا البرنامج أصبح ضرورة لا مفر منها بالنسبة للوكالة اليهودية كما كان بالنسبة للدول الاستعمارية فبدون هذا البرنامج لم يكن بالامكان اجتذاب أي مهاجر من الغرب أو بناء الوطن القومي اليهودي أو الارتقاء بمستوى المستوطنين إلى درجة التهديد والسطوة التي اكتسبتها إسرائيل .

وعلى هذه الأسس قامت الأفكار والسياسات الصهيونية بالنسبة لعرب فلسطين . وقد لخص هذا الوضع الكاتب اليساري الاسرائيلي مكسيم غيلان بقوله « ان المجتمع الاسرائيلي هو في أساسه مجتمع مستوطنين . انه لا يعنى أولياً بمصير الهنود أو الزنوج الموجودين في البلاد . الأسبقية الأولى تعطى لايجاد كيان اقتصادي موحد للاسرائيليين اليهود . وبعد ذلك فقط يلتفت النظر إلى الفلسطينيين الواقعين في الأسر كفكرة ثانوية تخطر في البال فيما بعد . » ^(٧) وقد سبق للجنرال ستورز ان سجل هذه الملاحظات عندما أشار إلى ادعاء الصهاينة بأنهم أحق بفلسطين من العرب لان العرب غير قادرين على إضفاء أي شيء عليها في حين يستطيعون هم وحدهم احياءها ^(٨) . ومن الادعاءات المتكررة على السنة الناطقين الاسرائيليين انهم أعرف بمصلحة العرب وأنفع لهم . وطالما أكدوا للحكام الانكليز بأنهم سيقومون بتمدين السكان الأصليين ولكنهم كانوا بعين الوقت يصرون على

(٧) M . Gilan ، كيف فقدت إسرائيل روحها ، لندن ، ص ١٦٤ .

(٨) Orientations ، Storrs ، لندن ، ص ٤١٣ .

وقد أثرت كل هذه التطورات على سير الحركة الصهيونية التي جاءت إلى حد كبير كجزء من مدرسة الإصلاح الكولونيالي بدعوتها إلى تهجير الفائض السكاني اليهودي من أوروبا إلى آسيا آناً وأفريقيا آناً وأمريكا اللاتينية آناً آخر^(٤) . واستعارت الصهيونية كثيراً من شعارات الاصلاحيين الكولوناليين بما في ذلك معالجة النمو السكاني بالهجرة إلى المستعمرات واستخدام المهاجرين في الزراعة والتأكيد على الدعاية والاعلام في الحملة وتنفيذ المشروع الاستيطاني بموجب امتياز تمنحه دولة كبرى وتمتع المستوطنين باستقلال ذاتي تحت حماية الدولة الكبرى . وكما أيد الزعيم الصهيوني ماكس نوردو الاصلاحيين الكولوناليين باتفاقه بان علاج مشكلة البطالة يكمن في تشغيل العاطلين في الزراعة في المستعمرات حيث ينبغي أن يحلوا محل « العناصر الأخط » التي لم تعد قادرة على البقاء في عملية تنازع البقاء التطوري^(٥) ، كذلك وجدنا زعيم الإصلاح الكولونيالي اللورد اشلي يرفع راية الصهيونية بدعوة الحكومة البريطانية لتأييد الهجرة اليهودية إلى الشرق الأوسط . وطالما استشهدت المؤلفات الصهيونية بنشاط اللورد اشلي ودعوته الرائدة في هذا الميدان .

وكان هناك لقاء روحي بين الصهاينة والعنصريين الاوربيين مثل كارلايل وفروود ممن آمنوا بهجرة العناصر البيضاء إلى العالم الثالث وسيادتها على هذا العالم . وقد أعرب ثيودور هرتزل بصراحة عن هذا الاتجاه في روايته « الأرض القديمة الجديدة » عندما أشار إلى السيطرة على الأمراض المتفشية في افريقيا تمهيداً لفتح هذه القارة لاستيطان المواطنين البيض من أوروبا ، أو كما قال « الفائض الاوربي من السكان »^(٦) .

وقد واجهت الوكالة اليهودية نفس الموقف الحضاري في فلسطين بين

(٤) انظر ماكتبه ليونسكر في كتابه « الانعتاق الذاتي » عن موضوع الفائض السكاني .

(٥) M . Nordau ، الانحطاط Degeneration ، لندن ، ١٨٩٦ .

(٦) ثيودور هرتزل ، الأرض القديمة الجديدة ، حيفا ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٩ .

سيستطيع اليهود أن يمسكوا بزمام الأمور بأيديهم ويصبحون سادة المستعمرة الجديدة (١٢) .

العنصرية هي دين المستعمر ومصيره الذي لا مخلص له منه ، تفاقمت بتفاقم الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . وكجزء من هذه الحركة الواسعة ، لم يكن بمقدور الصهيونية ان تتفادى الوقوع بنفس المأزق العنصري الذي وقعت به الكولونيالية الاوربية القائمة على فرض شعب على آخر . ولم يكن بمقدور الصهيونية ان تجد حلاً لهذا المأزق غير نفس الحل العنصري القائم على افتراض تأخر الشعب الآخر وتواصل هذا التأخر في دمه وعنصره . وكما كانت زوجة الضابط أو الحاكم البريطاني تسير في بيتها عارية أمام خادمها الهندي شعوراً بأنها ليس ببشر من نفس الفصيلة ، كانت المستوطنة اليهودية تسير في البكيني أمام المسلمين الفلسطينيين بدون أي حرج أو تفكير .

وقد لاحظ أحد نقاد الحركة الصهيونية من اليهود ، الأستاذ موريس كوهين ، هذا الاتجاه الكولونيالي الاستعلائي في المستوطنين اليهود فعزاه إلى نفس الشعور الاوربي واعتبره مرادفاً للشعور التيوتوني بتفوق حضارة وقدرة الشعوب التيوتونية على غيرها (١٣) . وقد أخذ هذا الشعور الآري بالتفوق والتميز الابعاد والاتجاهات التي نبهتها في الفصول التالية .

(١٢) بر بورخوف ، القومية والنضال الطبقي ، نيويورك ، ١٩٣٧ ،

(١٣) M . Cohen ، الصهيونية : قبلية أم لبرالية ؟ نيويورك ، ١٩٤٦ ، ص ٨ .

ضرورة إعطاء المستوطنين اليهود امتيازات خاصة . ومن المعترف به مثلاً انهم رفضوا قاعدة « الصوت الواحد للرجل الواحد » التي قبل بها حتى ايان سميث ، رئيس حكومة الأقلية البيضاء في روديسيا ، وأصرّوا على إعطاء اليهود نصف الأصوات في عام ١٩٣٦ في المجلس التشريعي المقترح ونصف الأعمال المتوفرة في البلاد رغم انهم لم يتجاوزوا ٣٠ ٪ من السكان . وأعطى حليم وايزمان لنفسه الحق في حجب الديمقراطية عن العرب على زعم انها ستصبح مهزلة تؤدي إلى إناطة السلطة بيد الطبقة العليا من المجتمع العربي باسم الديمقراطية (٩) .

وكان مما لاحظته اللجنة الملكية البريطانية في عام ١٩٣٧ الانفصال الكلي الذي عاشته المجموعة الصهيونية عن المجموعة العربية في التعليم والسكن والخدمات الاجتماعية إلى حد أنهم كانوا يرفضون حتى التطب في المستشفيات التي كان العرب يقصدونها (١٠) . والواقع ان وايزمان قد اعترف أمام اللجنة الملكية البريطانية بأن اليهود قد اعتمدوا على أنفسهم في الزراعة إلى درجة خلقت مجموعتين من البشر في فلسطين ، مجموعة عربية بدون شغيلة يهودية ومجموعة يهودية بدون شغيلة عربية (١١) .

وقد فلسف زعيم الاشتراكية الصهيونية ، بربروخوف ، السعي الاستعماري للصهيونية بقوله ان اليهود يشكلون طبقة بتي برجوازية آخذة بالاضمحلال نتيجة الضغط المعادي للسامية . وستتحول بنتيجة ذلك اما إلى برجوازية أو بروليتاريا . ولكن الاحتمال الأول ضعيف بسبب سيطرة الاغيار على الانتاج الصناعي . وسيضطر ذلك اليهود إلى الهجرة ، ولكن هذه الهجرة ستواجه نفس المشكلة في المهجر الذي يضم طبقة برجوازية . وعليه فيجب الهجرة إلى إقليم متأخر حضارياً ، أي بدون برجوازية . هناك

(٩) حليم وايزمان ، التجربة والخطأ ، لندن ، ١٩٥٠ ، ص ٤٠٣ و ٤٦٧ .

(١٠) تقرير لجنة بيل ص ١٤٣ ، ٣١٤ ، ٣٢١ .

(١١) إفادة وايزمان إلى اللجنة الملكية عن فلسطين ، تشرين الثاني ، ١٩٣٦ .



الفصل الثالث

الفكر العنصري في القرن التاسع عشر

بعد سنوات قليلة من الثورة الفرنسية كتب جورج كوفير في عام ١٨٠٠ بياناً توجيهياً للبعثات الفرنسية المزمعة على التوغل في مجاهل جزر المحيط الهادي بعنوان « رسالة عن اللامساواة بين الاعراق البشرية ». وذكر كوفير في رسالته ان سلوك وحضارة أبناء الشعوب المختلفة تتوقف على شكلهم الفزيولوجي، وقسم العالم إلى عرق أبيض وأصفر وأسود ، وأعطى الاعراق المختلفة درجات من الحضارة حسب هذا التسلسل اللوني ، وبين ان لكل عرق منها غمطاً خاصاً من الجماجم يختلف عن سواه ، ويتوقف مقدار الذكاء على حجم وشكل جماجم العرق . وكان جورج كوفير عالماً من علماء التشريح ، ونقل برسالته المذكورة موضوع التمييز العنصري من ميدان الدين والتقاليد القبلية إلى ميدان العلم وفتح بذلك الأبواب للمناقشة الطويلة التي ما زالت مستعرة حتى اليوم . ومن المهم ان نلاحظ هنا العلاقة بين رسالة كوفير والسعي الكولونيالي للغرب .

واستفدت أطنان غزيرة من الخبر والورق في موضوع العلاقة بين

جمجمة الانسان وذكائه وقدرته الحضارية ، ونشأ من ذلك علم كامل باسم علم الجماجم Craniometry . وقد استحوذ هذا العلم على اهتمام علماء الاجتماع والسياسة . وكان من ألمع النجوم في هذا الميدان تيدمان وكامبر وبلومباخ الذي قسم المجتمع البشري إلى خمسة أقسام رئيسية حسب هيئتهم الفزيولوجية . وأجمع هؤلاء العلماء على انحطاط الاعراق السوداء . وفسر العالم السويسري كارل فولت سبب هذا الانحطاط بالقول بأن الفطور الطبيعية في جمجمة الطفل تلتحم عند الزنوج بسرعة فيتوقف بذلك نمو الدماغ بتحجر الجمجمة المبكر .

ووقع الباحثون العنصريون في مأزق من حيث أصل هذا التمايز وسببه ، فالمفروض ان جميع البشر قد ولدوا من آدم ، فمن اين جاءت هذه الفروق ؟ هنا حاول كوفيير تفسير الظاهرة بالقول بأن كوارث فظيعة قد ألمت بالبشر بعد نزول آدم إلى الأرض وقضت على كثير من سلالاته . وحدثت آخر كارثة قبل خمسة آلاف سنة عندما هلك الجميع ولم يبق غير ثلاثة أسلاف انحدرت منهم الاعراق الرئيسية البيضاء والصفراء والسوداء . وانقسم العلماء إلى معسكرين تبنى أحدهما فكرة الرجوع إلى أصل واحد Monogenesis وتبنى الثاني فكرة الرجوع إلى أصول مختلفة Polygenesis واستمر الجدل سجالاً بين المعسكرين .

ولكن هذا السجال أصيب بهزة هائلة بالقبلة التي أطلقها شارلس داروين في كتابه « أصل الأنواع » . لم يعد الموضوع موضوع عرق أبيض وأسود وإنما دخلت في الميدان القرودة وشتى الحيوانات الأخرى . لقد عاشت على الأرض أعراق وأنواع وفصائل مختلفة من الحيوانات هلك معظمها بنتيجة التنافس إلى البقاء وبقاء الأصلح . ومهما كان تفسيرنا لنظرية التطور فان العنصريين وجدوا في اكتشافات داروين رصيماً ثميناً يسند إدعاءاتهم العنصرية . وقبل كل شيء ، كان العنوان الثاني للكتاب يقول « بقاء الاعراق الأحسن في النزاع من أجل الحياة » .

وضم داروين صوته إلى صوت دعاة علم الجماجم بقوله في « أصل

الانسان » ، الذي نشره في عام ١٨٧١ ، ان هناك علاقة بين الذكاء وحجم الدماغ وتتضح هذه العلاقة عند المقارنة بين مجامع « الاعراق المتوحشة والاعراق المتمدنة » . وسرعان ما انبثقت على أساس ذلك مدرسة الداروينية الاجتماعية التي دعت دعوة صريحة إلى التمايز بين الاعراق ومعاضدة هذا التمايز . وتبلور أثناء ذلك علم الاجناس (الانثروبولوجيا) وأخذ طريقه في نفس الاتجاه . وفي الأخير ظهر نيتشه ليستمد وحيه من الداروينية ويدعو إلى السعي وراء الانسان الأرقى والأقوى .

وقد أصبحت الداروينية والنيتشوية موضحة الموسم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وراح التلامذة والأساتذة والصحفيون وجميع حملة الأقلام يتبجحون بها ويتزلفون إليها . بيد أن التفسير العنصري لم يكن التفسير الوحيد للداروينية . فقد ظهر على الطرف الآخر كارل ماركس ليعطي فكرة التنازع تفسيراً آخر هو التنازع الطبقي وفكرة بقاء الاصلح في بقاء الطبقة الأرقى تقدماً في سلم التطور الانساني . والتف حول لواء الاشتراكية التقدميون الذين آمنوا بالاخوة البشرية والمساواة . وبالإضافة إلى هذين المعسكرين - العنصري والاشتراكي - كان هناك المعسكر الثالث، الليبرالية . ودعا الليبراليون إلى المساواة بين الاعراق والفئات الاجتماعية بضمنان حقوقها الأساسية وأولها حق انتخاب الحكومة . لقد لاحظ الليبراليون ان العنصرية تؤدي إلى الحروب والنزاعات بين الشعوب والدول وهذا بدوره يؤدي إلى عرقلة حرية التجارة وزيادة الضرائب والتبعات ، كما ان التمييز العنصري يؤدي إلى تقليص مقدار الأيدي العاملة المتوفرة لرب العمل .

كانت هذه هي المعسكرات الفكرية الثلاثة التي سيطرت على المسرح السياسي في القرن التاسع عشر . وقد رفضت الصهيونية الماركسية والليبرالية لأن كليهما يدعوان إلى تآخي وتعايش القوميات والاعراق المختلفة ويؤيدان في الأخير إلى ذوبان الشخصية اليهودية المنفصلة واندماجها بالكل . وبرفض هاتين المدرستين ، لم يبق أمام الحركة الصهيونية غير انتهال قوتها

الايديولوجية من المدرسة الفكرية الثالثة ، مدرسة العنصرية . وأصبح هذا الانتهاء شيئاً لا مفر منه .

وفي هذا الجو ، استحوذت فكرة داروين الرئيسية على لب المفكرين الرجعيين ودعاة البناء الامبراطوري والتسلط القومي الاعتدائي . وترجع قصة هذا اللقاء الاستراتيجي بين الرجعية والعنصرية الداروينية إلى الثورة الفرنسية وعواقبها . لقد أدت هذه الثورة إلى أخطر اضطراب في المجتمع الاوربي وإلى أزمات اقتصادية واجتماعية خطيرة في كثير من الدول وخسائر جسيمة أصابت دهاقنة المال وكبار الملاكين وأرباب الوضع القائم . وقد نظر مفكرو هذا المعسكر نظرة تشاؤمية إلى المجتمع الصناعي الحديث وما جاء به من تلوث في البيئة وتدهور صحي وتحلل أخلاقي واضطراب عمrani . ونظروا إلى ما تضمنه من اختلاط بين الفئات الاجتماعية والعرقية والدينية وحركة دائبة بين الجموع البروليتارية وانتقالها من مكان إلى مكان بشكل افقدها جذورها وانتماءها وهويتها . وكانت النتيجة المتوقعة لمثل هذه النظرة الحنين إلى الماضي وما تضمنه من استقرار وأسوار فاصلة بين القطاعات الاجتماعية وترجيح حياة المجتمع الزراعي على المجتمع الصناعي مع تأكيد خاص على الغابات والأشجار حتى أصبحت قلة أنظار المحافظين . وتحول الهيام الرومانطقي الساذج بحياة القرية وفضائل القرويين إلى ركن مقدس عند البرجوازية الاوربية مما تصدى له اميل زولا بهجوم مر في روايته « الأرض » .

وساعدت هذه النظرة الرومانطيقية على نمو الحركة الفولكية في اوربا الوسطى كرد فعل للعقلانية والموضوعية التي تميز بها القرن الثامن عشر وبدأت تفقد هيبتها بعد الهزات التي حلت باوربا فيما بعد . بادرت الحركة الفولكية إلى رفض الواقع الكائن وأي تفسير أو تبرير عقلاي له . وانتقل مركز الثقل من العقل إلى العاطفة فأصر الفولكيون على ربط الانسان بجذوره البعيدة في تربته ومحيطه الأصلي في الريف وفي تاريخه الروحي البعيد . أصبح الشخص المجرد من جذوره الطبيعية شخص ميت وأصبح

مجموع الأفراد الذين ينحدرون من نفس المحيط الطبيعي بكل ما يتميز به من صفات جغرافية وفيزيائية مجموعة فولكية واحدة ، أو أمة . وأصبح كل من لم ينحدر من نفس المحيط شخصاً غريباً عن هذه الأمة . « لقد أصبح الواقع المتمنى مشحوناً بقيم عاطفية وأشواق ريفية تعكس بكل وضوح الرغبة الفولكية للهروب من واقع العصر وقيمه الصناعية والحضرية . » (١) .

والتقت هذه النزعة الفولكية الرومانطيقية بالعنصرية من حيث ان الطبيعة ، التي وصفها بوخز بالارستقراطية ، كانت الميدان الذي احتضن الفصائل البشرية بصورها الأصلية غير المهجنة وأعطى الفرصة للقوانين الداروينية لتلعب دورها الطبيعي في إبادة العناصر المنحطة وسيادة العناصر الأرقى . وأدى الابتعاد عن الطبيعة إلى اختلاط الاعراق ومن ثم تدهور الانسان . وإذا كان حب الطبيعة ينطوي على حب الغابات فانه بالنتيجة ينطوي على القبول بقانون الغاب .

ومن الوثائق الرئيسية التي ربطت بصراحة بين العنصرية وتطورات الثورة الفرنسية المقالة التي كتبها الكونت دي غوبينو بعنوان « رسالة عن اللامساواة بين الاعراق البشرية » . واعترف فيها بأن الغرض الأولي لمقاله هو محاربة الأفكار الليبرالية والديمقراطية التي دعا إليها رواد الثورة الفرنسية . وقد بين غوبينو ان « العرق الآري » هو أرقى الاعراق وأنقاها وان حضارات الشعوب الأخرى قد تلاشت وانقرضت بنتيجة اختلاط أبنائها بأبناء الاعراق الأخرى .

ولا شك ان النازية أعطت كل تلك الأفكار مكانتها في برامجها السياسية والتربوية التي أكدت على حياة الطبيعة والزراعة والتغني بالغابات والمرأة الطبيعية غير المتبرجة بمواد الزينة والتجميل . وحورب الشذوذ الجنسي بشدة إلى درجة ان الحزب النازي أمر بإرغام اللواطين على حمل

(١) انظر G . L . Mosse ، ازمة الايديولوجية الالمانية ، لندن ١٩٦٦ ، ص ١٥ .

إشارات خاصة أسوة باليهود في القرون الوسطى . كما حوربت الفنون الحديثة لخروجها على الطبيعة وشجعت الفنون الفولكلورية والحرف اليدوية . ونظر إلى المرأة كمواطن من الدرجة الثانية لا لضعفها فقط وإنما للتجاوب مع النظرة الفولكلية أيضاً . وجرى تأكيد كبير على الجذور التوتونية للشعب . ولا شك أن السياسة المأساوية التي اتبعها هتلر عكست في طياتها الجوانب المختلفة من اللاعقلانية والرومانطيقية والتهرب من وجه كل الوقائع الموضوعية التي أحاطت بالوجود القائم لألمانيا .

ويمكننا ونحن في هذا الموقف ان نرى كيف استجابت الصهيونية لنفس الاتجاه الفكري المنقلب على عقلانية القرن الثامن عشر وراحت تبحث عن الوجود الانساني بعيداً عن حاضره الموضوعي وعميقاً في التراث الفولكلي وتحاول إعطاء الانسان معناه في الوجود بربطه بالكوزموس (الكونية) ضمن إطار عاطفي رومانطقي . وكان من أبرز الرواد الروحيين للصهيونية ممن عناوا بهذا الجانب الفلسفي مارتن بوبر، ونهيب بالقارىء إلى مراجعة كتابه في هذا الشأن « فلسطين وإسرائيل » . كما نشير إلى ما كتبه جورج موس في مقارنة أفكار بوبر بأفكار الحركة الفولكلية . « فرغم الفارق ، نجد ان الأفكار التي كونت صهيونية بوبر جاءت موازية للأفكار التي كونت الرومانطيقية الجديدة » (٢)، وكان الاختلاف الظاهر هنا هو ان الالمان أكدوا على الذوبان في شخصية قدماء الجرمان والدعوة إلى المسيحية الفولكلية والتعلق بأهداب الذات الكونية للمسيح بينما أكد بوبر على الذوبان في شخصية أنبياء التوراة والدعوة إلى اليهودية الفولكلية ، يهودية القرون الوسطى البعيدة عن فوضى الثورة الصناعية ، وعلى التعلق بأهداب الذات الكونية للاله يهوا .

ويستعرض بوبر في بحثه عن « الانسان والأرض » التأكيد الخاص الذي وضعته اليهودية على الرابطة بين الطرفين مستشهداً بخلق الانسان من

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

سابقاً ، ويتقويضها فتح الباب لكل هذه النتائج . بالطبع ظهر في الميدان رأسماليون يهود على غنى لم يسبق إليه ولكن هؤلاء آثروا الانخراط في جانب البرالية والجلوس في برلمانات الاغيار والاندماج معهم ، وهو غير ما تريده الصهيونية . لقد دقت الثورة الفرنسية بالنسبة للصهاينة أجراس الهلاك بالبيان التاريخي لنابليون بتحرير اليهود واندماجهم بباقي المجتمع .

وعليه فيجب ألا يستغرب أحد عندما يجد في الأدب الصهيوني الكلاسيكي خيوطاً من نفس النسيج العنصري الذي تلا الثورة الفرنسية . فبالرغم من كل التقدم العلمي والتقني الذي تؤكد عليه إسرائيل ، نستطيع أن نلمس الأساس التشاؤمي السلبي في موقف الصهاينة من العلم وإمكانياته البعيدة في توحيد المجتمع البشري وتقريب الانسان من أخيه الانسان والقضاء على الخرافات والحزازات والعداوات . إسرائيل تؤمن بالعلم في إعطائها سلاحاً جديداً لمحاربة العرب وليس في استعماله كوسيلة عقلانية لمعالجة مشكلة تعايشها مع العرب . وموقفها هذا لا يختلف بتاتاً عن موقف العنصرية الالمانية في قبول التركيب الاقتصادي والتقني القائم رغم الافكار المعادية له وذلك مما اعتمد عليه النازيون في تبرير تركيزهم على التصنيع (٤) .

والواقع ان ناحوم سوكولو ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، قد انتقد بنفس نبرة العنصريين الاكتشافات والاختراعات العلمية الحديثة قائلاً انها لم تحقق الكثير للانسان ومن الأولى بالبشر الرجوع إلى الطبيعة والحضارة الأصلية (٥) . وفي مناسبة أخرى ، رسم سوكولو بأسلوب محاور سياسي شخصية الصهيوني المحببة إلى نفسه كما وجدها في صديق صباه مثير . لقد كان مثير تلميذاً جامعياً درس العلوم الحديثة واللاهوت وفكر في كل الأبواب المفتوحة وغير المفتوحة أمام اليهودي المعاصر في أوروبا . ولكنه انتهى في

(٤) Mosse ، ص ٩٧ .

(٥) N. Sokolov ، تاريخ الصهيونية ، لندن ، ١٩١٩ ، المقدمة ص ١٨ و ٤٨

الطين وثورة الأرض ضد الانسان وكفرانه في قصة الطوفان وسخطها على ممارساته الجنسية الشاذة . الأرض بالنسبة لاسرائيل جزء من العلاقة الروحية بالاله ، زراعتها شكل من أشكال العبادة ، اراحتها شكل من أشكال السبت ، يوم الراحة والابتهاال إلى الله . (٣)

لقد استجاب الصهاينة استجابة واضحة لفكرة الجذور الممتدة في التربة التاريخية . انهم لا يملكون هذه الجذور في المانيا أو روسيا أو فرنسا أو انكلترا بنفس الدرجة التي يملكها الالماني أو الروسي أو الفرنسي أو الانكليزي المسيحي ، فأين هي جذورهم ؟ وإذا كان هتلر وغيره من الناطقين المعادين للسامية قد عابوا على اليهود « افتقارهم إلى الجذور » ، فقد سارع الصهاينة لا إلى رفض السؤال من أساسه وإنما إلى قبوله ، وبالتبعية قبول الأساس العنصري للسؤال ثم الاجابة عنه بأن جذورهم موجودة في فلسطين .

وهكذا راحت المؤلفات الصهيونية تسهب في وصف سهول فلسطين وجبالها وهضابها ومدائنها القديمة ومياهها الطاهرة وسمائها الصافية وكل ما يعطي فلسطين طبيعتها التي اندمجت بآلهة إسرائيل وتراث بني إسرائيل الفولكي في كوزموس كوني يربط بين جميع ايناء هذا الشعب . وكان هذا الموقف متوقعاً من الحركة الصهيونية التي تعرضت لنفس اثار الثورة الفرنسية التي تعرضت لها العنصرية الاوربية . لقد مزقت أفكار هذه الثورة الكيان اليهودي التقليدي وفككت العائلة المشهورة بتماسكها وقلصت نطاق المدارس الدينية وقضت على الحرف اليهودية القديمة وشجعت الزواج المختلط والتمرد على السلطة الحاخامية وأحالت قطاعات كاملة من الطائفة اليهودية المستقرة إلى بروليتاريا متنقلة تعاني من فقر مريع . كان من أول أعمال نابليون في هذا الميدان تقويض أسوار أحياء الغيتو التي أشرنا إليها

(٣) M . Buber ، إسرائيل وفلسطين ، لندن ، ١٩٥٢ ، ص ١٠

الالمانية ، وخاصة مستوطنة عدن ، تقوم على نفس التطبيقات الاشتراكية الرومانطيقية في الملكية المشاعة واقتسام الناتج والاكتفاء الذاتي وبعين الوقت « التأكيد على العنصرية » (٨) .

وقد أخذ رواد الصهيونية شعار العنصريين « العودة إلى الأرض » بالنص كشعار للمهاجرين اليهود . وقد تبناه الصهاينة بنفس الوقت كرد فعل غير مباشر للنقد الذي وجهه العنصريون الالمان ضد اليهودية . فقد ادعى هؤلاء ان معظم الشعوب قد ادخلت في ديانتها فكرة الالهة الأم كرمز معبر عن القطاع الزراعي باستثناء اليهود الذين لم يضمّنوا ديانتهم مثل هذه الفكرة لعجزهم عن الاضطلاع بالزراعة وبقي الدين عندهم قائماً على الاله الاب . (٩) وربما جاء كتابات مارتن بوبر التي أشرنا إليها سلفاً بالنسبة لارتباط اليهودية بالأرض والزراعة بمثابة جواب على التهمة .

وقد أعطى رائد «الاشتراكية الصهيونية» بروخوف صدى لهذه الجوانب من الفلسفة العنصرية في مقالته «التطور الاقتصادي للشعب اليهودي» المنشورة في عام ١٩١٦ في مجلة Der Yiddisher Kaempfer . وقد وصف فيها اليهود بالشعب المريض الذي لا تتوصل إلى تحليل عرض من أعراض علته حتى تظهر أعراض جديدة . ورأى بروخوف ان أسرار هذه العلة تكمن في ابتعاد اليهود عن الطبيعة والاعمال الاساسية . ولا سبيل إلى معالجة ذلك بغير الرجوع إلى الأرض والطبيعة . وحمل الكاتب « الاشتراكي » في مقاله بشدة على المكائن الجديدة وقسوتها وإزاحتها للعامل والحرفي اليهودي (١٠) . وإذا كان بروخوف قد حاول إعطاء هذا البعد

(٨) Mosse ، ص ١١١ .

(٩) L . Poliakov ، الأسطورة الآرية ، لندن ، ص ٢٧٤ . ربما تتجلى هذه الملاحظة بالمقارنة بين العذراء الأم في الكنيسة المسيحية وكلمة « الأب » التي تتكرر باستمرار في العهد القديم إشارة إلى الرب .

(١٠) Ber Borochoy ، القومية والنضال الطبقي ، نيويورك ، ١٩٣٧ .

الأخير إلى الحل الصحيح الوحيد الكامن في الذهاب إلى فلسطين والعمل فيها كمزارع . هناك التقى به سوكلو مرة ثانية وعاد وإياه إلى نفس الحوار حول الوجود اليهودي . ولكن مثير رفض في هذه المرة الدخول في أي موضوع غير الزراعة ، زراعة الفاصوليا والخضروات الأخرى وطرق غرسها وتسميدها الخ . « تتصورني واحداً يبحث عن الجديد ؟ كلا ، انني أقوم بعكس ذلك . انني أبحث عن القديم » . أصبح مثير هو « اليهودي الطبيعي » - على حد تعبير سوكلو (٦) .

العودة إلى الزراعة من الاركان الرئيسية لظاهرة الهروب من الواقع التي اتصف بها معظم العنصريين . وكان من الملاحظات الأولية التي سجلتها اللجنة الملكية البريطانية لفلسطين في تقريرها لعام ١٩٣٧ ، ظاهرة التهرب من الوقائع الموضوعية التي وسمت النشاط الصهيوني بسمتها بصورة عامة . وظلت صفة الهرب من الواقع Escapism من الصفات التي أدان بها كثير من النقاد الحركة الصهيونية .

أكدت هذه الحركة منذ بدايتها على العمل الزراعي وحياة الكبوتر « لقد كان ميدان العمل الذي كرس له أنفسهم العمال اليهود بصورة رئيسية هو ميدان الزراعة نظراً لأن زراعة الأرض كان يعتبر منذ البداية الأساس الأولي للوطن القومي » (٧) . وطالما تبجح الاعلاميون الصهاينة بمزارع الكبوتر كمظهر من مظاهر الحياة الاشتراكية في إسرائيل مستغلين بذلك جهل القارئ بالحقيقة التاريخية في ان العنصريين الالمان هم الذين وضعوا أول مرة فكرة المزارع التعاونية الجماعية وأقاموا بالفعل عدداً منها في المانيا ذاتها وفي مستعمراتها الافريقية . وقد طرحت كثير من الآراء في الدراسات المقارنة بين اليوتوبيات الزراعية الالمانية والكبوترات الصهيونية . وما لا شك فيه ان هناك فروقاً مختلفة بين التنظيم العملي لكل الصنفين ، ولكن الأساس النظري والمنطلق الايديولوجي لهما واحد . وكانت المستوطنات

(٦) N. Sokolov ، اليهودي الجديد ، لندن ، ١٩٢٩ ، ص ٢٠ .

(٧) J. Cohen ، الحركة الصهيونية ، لندن ، ١٩٤٥ ، ص ١٥٩ .

الايديولوجي أساساً علمياً فان مارتن بوبر سعى إلى إعطاء نفس الفكرة طابعاً روحياً بتطهير النفس بإرجاعها إلى الأرض والطبيعة (١١) .

ولعل إسرائيل هي الكيان الحديث الوحيد الذي يمكّن فيه بزمام الأمور أصحاب الزراعة وليس أصحاب الصناعة أو المال أو أبناء الطبقة البتي برجوازية . وقد جاء جميع زعمائها الأوائل كبن غوريون واشكول وموشي ديان وغولدا مثير وبيغن من القطاع الزراعي . ولا نغالي إذا قلنا ان ارستقراطية الكبوتز لعبت في حروب إسرائيل دوراً يذكرنا بدور ارستقراطية اليونكرز الزراعية في المانيا مع الفارق طبعاً . ويمكننا بنفس الوقت ان نضع مشاريع التشجير والغابات التي تتبجح بها وتؤكد عليها تل ابيب في إطار التعلق العنصري بالغابات . وما يلاحظ ان اعتقاد العنصريين الالمان بأن سكان الغابات يننون الحضارات وسكان الصحراء يهدمونها (١٢) جاء مؤاتياً للحركة الصهيونية في دعواها ضد العرب ووجد أصداء مختلفة في أدبياتها باتهامهم بتدمير حضارات الشرق الأوسط القديمة . وتذكرنا ادعاءاتهم هنا بالتصنيف الذي أعطاه هتلر للبشرية بتقسيمها إلى ثلاث فصائل : بناء الحضارات ، حماة الحضارات ، مخربو الحضارات .

وربما وجدنا في شخصية بن غوريون المثال النمطي للشخصية العنصرية التقليدية مضافاً إليها صفة التستر الصهيونية . فبغض النظر عن موقفه من العرب واشمئزازه من اليهود الشرقيين ، نجد السلوك الفولكي متجسماً في حياته الخاصة ، في اختياره لزوجته البسيطة الهیئة وغير المترجمة وفي المنزلة الثانوية التي أعطاها لها في حياته العامة . وكما قلنا ، انحدر بن غوريون من قطاع المزارعين وظل يؤكد طيلة حياته على تفضيل الزراعة ، بل والرعي ، على الصناعة والاعمال . وعندما انتهت حياته السياسية ، بادر إلى الانسحاب جسماً وروحياً من حياة المدن إلى الحياة البسيطة في

(١١) Buber ، ص ٦٧ .

(١٢) Mc Covern ، ص ٢٨٦ .

صحراء النقب حيث أقام بيته . وقد كشف عن روح التمييز العنصري المتأصلة فيه منذ أيامه الأولى في فلسطين عندما سعى بالحيلة والمناورة إلى التخلص من الحراس الشراكسة واحلال حراس يهود بدلاً عنهم مما رواه بفخر واعتزاز في مذكراته « انبعث إسرائيل ومصيرها » .

ومن الصفات البارزة للعنصرية الاوربية التعلق بالتلد وتبعاته البالية مما يترتب على النظرة الوراثية إلى الماضي . وما كان يجري تحت ظل النازية من التلدية Archaism لقي صداه الواسع تحت ظل الصهيونية . ويمكننا ان نلمس ذلك في اللغة الجغرافية والتاريخية التي يستعملها الصهاينة إلى درجة تحليلها لغة غير مفهومة كلياً لغير المطلع على التراث العبري . ونرى زعماء الصهاينة يقذفون بالعبارات التوارثية في أية محاججة سياسية سواء أكانوا يؤمنون دينياً بالتوراة أو لم يؤمنوا . والواقع ان اعتماد الصهاينة الملحدون واللادينين على النصوص الدينية في كتاباتهم السياسية هو أمر جدير بالنظر . وهنا أيضاً نشير إلى بن غوريون وتعلقه المطلق بالتلد . لقد أكد بصراحة على أن اليهود شعب محافظ ولا يتغير بتغير الظروف ويظل يسير بهدي ميوله ومواقفه القديمة (١٣) . والواقع ان اللغة التي يستعملها بن غوريون تفصح بذاتها عن النظرة الراجعة إلى الوراء ، ولكننا نؤثر ان نعطي نموذجاً آخر نستشهد به من كتابات أحد الضباط الاسرائيليين في مذكراته عن حرب ١٩٦٧ :

« وهنا شعرت بارتباطي ببيت داود ومملكة سليمان والهيكل . . . واستمر تقدمنا إلى الأمام شمالاً في هذه المرة فمررنا بيهودا ، الاقليم الذي ورثه سيمون ، وتركناه وراءنا فدخلنا قضاء افرايم . حقاً هكذا . انه لسعور مدهش انتابني كحفيد لتلك القبائل التي أصبحت رماحها ونبالها وأقواسها موضع العجب . نسير من مكان إلى مكان . . . لقد شعرت بأننا

(١٣) D . Ben Gurion ، انبعث إسرائيل ومصيرها ، لندن ص ٣٨٨ .

نكتب فصلاً جديداً في التوراة ، هنا في هذا المكان ، فصلاً عظيماً رائعاً خيالياً ، كجميع الفصول السابقة . اورشليم ، جريكو ، حبرون ، سخيم ، وادي نحسون ، . . . جميع الأرض الموعودة في أيدينا . » (١٤) .

وقد بلورت الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر موقفها التلدي عندما قررت بعد نزاع حام بعث اللغة العبرية المنقرضة وتبنيها لغة للوطن القومي بدلاً من اللغة الشلختية التي كانت سائدة بين يهود أوروبا وبدلاً من أي لغة أوربية سادت بين المهاجرين .

ومن الظواهر الشاذة لاسرائيل انها ربما تكون البلد الوحيد في العالم الذي يشهد إحياء دينياً على نطاق واسع ورجوع إلى تقاليد وتعاليم عفى عليها الزمن . ومن الشواهد الدالة على ذلك تكاثر المدارس الدينية (يشوفيت) في الآونة الأخيرة وتعاضم أثر الأحزاب الدينية على سياسة إسرائيل . وظهرت في الآونة الأخيرة حركة « حملة الاحياء » التي دعت إلى احياء التعاليم القديمة . ومن الأفكار الرئيسية التي تقوم عليها الحركة التأكيد على ذكاء اليهود وعبقريتهم واعتبار جميع الاغيار ، والعرب على وجه الخصوص ، ناقصين في الذكاء (١٥) .

ولا شك ان التعاليم القديمة التلدية قضت في حالة العبريين وغير العبريين باعتبار المرأة مخلوقاً ناقصاً . وكما ذكرنا سابقاً ، نظر العنصريون الالمان إلى المرأة نظرة فولكية تقوم أولاً وآخراً على النظرة التقليدية الشعبية نحوها ، لا لأنها صحيحة أو ثابتة عملياً وإنما لأنها جزء من التراث الفولكي للأمة . ونجد بالرغم من كل ما تدعي به إسرائيل من تحديث وتقدم مدني ، ان المرأة فيها ما زالت تعاني من كثير من القيود الحقيقية وأصبحت مسألة الحصول على الحقوق المدنية الكاملة للمرأة موضوع صراع طويل ترده

(١٤) داخل اورشليم - في المدينة المقدسة ، عين هارود ، من منشورات كبوتز عين

هارود .

(١٥) هاآرتز ١٦ / ٩ / ١٩٧١ .

يونغ وكارل كاوتسكي وبرنارد شو وتوماس مان وتوماس كارلايل واوتو فايننغر .

ارتكزت نقطة الافتراق بين الفكر الاشتراكي الطبقي والفكر
العنصري في هذا الموضوع على تفسير كلا الطرفين لفكرة داروين في التنازع
على البقاء . فبينما رأى الاشتراكيون ان هذا التنازع يأخذ بالنسبة للنوع
البشري شكل نزاع بين الطبقات ، رأى العنصريون ان ذلك التنازع يقوم
على التنازع بين القوميات والأجناس البشرية . لقد لاحظوا ان الداروينية
كشفت عن أنواع وفصائل مختلفة من الاحياء انقرضت من وجه الأرض قبل
ملايين السنين نتيجة نقصها وعدم صلاحها للبقاء . ولاحظ صورة متشابهة
في تاريخ الانسان حيث انقرضت أقوام وشعوب عديدة كالسومريين
والبابليين والآشوريين بسبب عدم صلاحها - كما تصوروا . وهنا التفت
الصهاينة إلى ظاهرة بقاء اليهود دون الأمم القديمة واستنتجوا من ذلك تفوق
العنصر اليهودي على غيره من العناصر . ونجد إشارات عديدة في الأدب
الصهيوني إلى هذه الظاهرة والاعتزاز بهذا البقاء الفريد للقومية اليهودية .
في كتابه « اليهود اليوم » أعطانا الدكتور ارثر روبين (المسؤول عن
الاستيطان الزراعي في فلسطين) التفسير الدارويني لرقى اليهود وصفاء
عرقهم . حاول روبين ، كسواه من العنصريين الاوربيين ، تطبيق
الأسلوب العلمي في تقديم حجته فاعترف بأن اليهود قد اختلطوا فعلاً مع
الأقوام الأخرى في بعض المناطق ، ولاحظ بأنهم في الجنوب ، ولا سيما في
البلدان العربية ، أصبحوا جزءاً من بقية المجتمع إلى درجة لا يمكن التمييز
بين سيمائهم وسماء الآخرين . ولكنهم في أوربا بقوا متميزين عن بقية
المجتمع . واعرب عن اعتقاده انه بصورة عامة « نجد أمامنا نفس الشعب
الذي قاتل بظفر تحت ظل الملك داود ثم ندم على سوء فعلته في أيام عزرا
ونحميا . . . » ولربما قصد روبين بسوء الفعلة هنا اختلاط اليهود وتزاوجهم
مع الأقوام الأخرى مما أثار عليهم سخط عزرا وإصراره على طلاق السيدات
غير اليهوديات كما سلف ان ذكرنا في الفصل الأول .

الصحافة الاسرائيلية من حين لآخر . ومن الخطأ أن نتصور ان هذا الوضع يرجع فقط إلى التأثير الديني السياسي للأحزاب الدينية على الحكومة . فمن المعروف والمأخوذ على المنظمة الصهيونية انها لم تعط غير مكانة ثانوية للمرأة في تنظيماتها وتحركاتها السياسية . وسبق للصحافة الصهيونية ان سجلت منذ سنين عديدة اعتراضها على منح الحقوق السياسية للمرأة كما دعت إليها حركة السفرجيتس البريطانية ، وعصدت اعتراضها بالقول بان الدين اليهودي لا يحسب المرأة في عد نصاب « النيان » (العدد الكافي من الرجال اللازم لصحة الصلاة)^(١٦) .

بالرغم من المحتويات اللاعقلانية والتلدية التي أشرنا إليها ، انبرت العنصرية للاستفادة من التقدم العلمي في ميدان علوم الطبيعة والاحياء والوراثة . وحصل هذا الالتقاء في بوتقة الداروينية . وازداد الطين بلة بحداثة هذه العلوم في تلك الفترة واعتمادها في كثير من الأوقات على هواة كانوا في الغالب ، وعلى الأخص في هذا الميدان ، مؤرخين أو فلاسفة أو صحفيين أو مجرد ضباط في الجيش . ومن المميزات التي جمعت بين منظري العنصرية والصهيونية انهم كانوا في كثير من الحالات رجالاً عانوا من فشل مهني أو خيبة في الطموح ووجدوا تبريراً لمحتهم الشخصية في التفسيرات العنصرية . راح الصهاينة يلومون الوضع القائم في الشتات الذي لا يسمح لليهود في الارتقاء وراح العنصريون يلومون الوضع الجديد الذي احتل فيه اليهود وغيرهم من الأقليات الأعمال والمناصب الشاغرة وسدوا الطريق أمام المواطن الأصلي .

وبهذه الخلفية ، وفي مثل تلك الظروف ، استطاع العنصريون إثبات ما شاؤوا من النظريات اعتماداً على حداثة العلوم وسذاجة الجمهور العلمي فاكسبت العنصرية رداء العلم وجذبت كثيراً من جهاذة العلماء والمفكرين ونخص بالذكر منهم شارلس داروين نفسه وهيربرت سبنسر والدكتور كارل

(١٦) انظر الزينست بولتن ، تموز ١٩١٤ .

« وعليه فلم يحافظ اليهود على مواهبهم العرقية الطبيعية العظيمة وحسب بل عززوا أيضاً هذه المواهب بفعل عملية طويلة من الانتخاب . ان الظروف الفظيعة التي عاشها اليهود خلال الخمسمائة سنة الماضية اقتضت تنازعاً مرأً من أجل الحياة بحيث لم يستطع على البقاء غير الأذكي والأقوى . . . » .

ومضي الدكتور رويين من هذا المنطلق الدارويني ليؤكد بأن الأمة تقوم بتطوير عنصرها بعملية الانتخاب الطبيعي عبر أجيال عديدة ، وهو ما فعله اليهود . وقد فعلوا ذلك بنتيجة تهالكهم على الزواج بنات وأبناء كبار علماء التلمود واللاهوت ، فأدى هذا إلى تركيز في الذكاء وتقدم العرق ذهنياً على غيره . ويكرر رويين نفس التحامل العنصري الاوربي العام ضد الافرو آسيويين ويضعه في نفس الاطار الدارويني فيقول انه ربما كانت عملية الانتخاب القاسية التي عاشها اليهود في اوربا السبب في « كون الاشكنازين (اليهود الاوربيين) في أيامنا هذه أرقى نشاطاً وذكاء وقدرة علمية من السفارديين (اليهود الافرو آسيويين) واليهود العرب رغم انتمائهم إلى نفس السلالة . أما بالنسبة للزنوج فيحتاجون كما يقول إلى ما لا يقل عن ألف سنة ليتمكنوا من إنتاج أي حضارة تضاهي حضارة اوربا الحالية .

ويورد العالم الصهيوني جدولاً طويلاً للمقارنة بين سلوك اليهود والاغيار ويقع بنفس التناقض العلمي التقليدي في العنصرية . انه يجد ان الاحصائيات تشير إلى أرقام عالية لليهود في ميادين العلم والفن وبعين الوقت في ميادين جرائم الغش والاحتيال والتزوير فيرجع تفوق اليهود في الفنون والفكر إلى مواهبهم العرقية الطبيعية ولكنه يرجع إجراميتهم إلى الظروف والبيئة - وبصورة خاصة إلى ابتعادهم عن مهنة الزراعة (١٧) .

ولكن أوليات الأسس الحديثة للعنصرية قد وضعت كما ذكرنا قبل ظهور داروين ونشر كتاب « أصل الأنواع » (١٨٥٩) بعدة سنين . وبينما

(١٧) A . Ruppin ، اليهود اليوم ، لندن ، ١٩١٣ ، ص ٢١٦ - ٢٢٨ .

أوقد نار العنصرية في فرنسا الكونت دي غوبينو ، تقدم في المانيا يوها غوتليب فخته ليضع اللبنات الأولى للفكر العنصري الحديث في بلاده .
وإليه ترجع تلك القواعد الأساسية التي تضمنت ضرورة المحافظة على نقاء الشعوب والقوميات وتقديم البشرية وصلاحتها عن طريق فصل القوميات عن بعضها البعض وتسليم زمام أمور الدولة إلى نخبة من الرجال الممتازين .
اليهود شعب ذو مصالح خاصة لا تجمعهم بمصالح بقية المجتمع . أحسن حل لليهود هو تهجيرهم إلى فلسطين . وبين فخته انه في حالة استحالة الوصول إلى مثل هذا الحل فالمخلص الوحيد لمعالجة قضيتهم هو قطع رؤوسهم واستبدالها برؤوس خالصة من أي فكرة يهودية .

وقد أعطى فخته القومية إطاراً لغوياً واعتبر كل مجموعة تنطق بلغة خاصة بها وحدة قومية مستقلة^(١٨) . ولكن العنصرين صححوا هذا المذهب فيما بعد بوحي علم الأجناس (الانثروبولوجيا) الذي بدأ يأخذ مكانه بين العلوم التقليدية . أصبح الأساس الجديد للقومية يقوم على التشريح الانثروبولوجي للأجناس البشرية من حيث الصفات الموروثة والنسل وشكل الجمجمة والهيئة والسياء . . . الخ . ومن الجدير بالذكر هنا ان الرائد الصهيوني موسى هس صاحب الكتاب الكلاسي في الحركة الصهيونية «روما وأورشليم» كان باحثاً انثروبولوجياً وعمد الى مزج معلوماته في هذا الميدان باليهودية وانتهى إلى إيديولوجية عنصرية صرفة على هذا الصعيد فأكد في كتاباته على ان الفوارق بين القوميات المختلفة هي فوارق موروثية وليست مكتسبة ، وأبدية وحتمية وليست عارضة أو قابلة للمعالجة . وقد تغنى مارتن بوبر بالاثرائ الطلائعي لموسى هس على التيقظ الصهيوني وأشار في معرض حديثه إلى تأثير الكونت دي غوبينو على موسى هس^(١٩) ومن العلماء اليهود الآخرين الذين انجروا إلى تأييد الحركة الصهيونية وتأثروا بالمقولات

(١٨) نشرت مجلة آفاق عربية في آب ١٩٧٨ شيئاً من أفكاره في هذا الموضوع .

(١٩) بوبر ، ص ١١٤ .

الانثروبولوجية بالنسبة للاجناس العالم الايطالي المشهور في علم الاجرام لومبروزو .

ولا شك بأن من أفضح الأخطاء العلمية التي وقع بها العنصريون رأيهم بأن نقاء الدم أو العنصر يؤدي إلى ارتقاء في النوع البشري . فمن المسلم به طبعاً الآن هو ان ذلك يؤدي إلى العكس تماماً وان تزاوج الأجناس المختلفة كثيراً ما يؤدي إلى جنس محسن . ومثل هذه المزاوجة هو ما يقوم به علماء الحيوان والنبات في أيامنا هذه بصورة مستمرة للخروج بأجناس محسنة من المواشي والمحاصيل . ولكن الرأي في تلك الحقبة ذهب ذلك المذهب واجتاح أوروبا مؤكداً على مصلحيها ومربيها الحرص على نقاء العرق والقومية . وظهر عندئذ علم كامل باسم علم الصحة العرقية Eugenics كما أطلق عليه الدكتور الفريد بلويتز . وبوحي هذا العلم ظهرت جمعيات في معظم مدن أوروبا الوسطى باسم جمعية الصحة العرقية . ولن استثار غضباً وعجباً وامتعاضاً من كلمات غولدا مثير بشأن توالد العرب وتكاثرهم المفرط المخيف نشير إلى كلمات المفكر الانكليزي في تلك الفترة الأستاذ غريك عندما عبر عن هلعه من شبح القومية الارلندية « المنحلة » وتكاثرها بنسبة تفوق نسبة تكاثر العنصر السكسوني المجيد مما يؤدي إلى غلبة العنصر الرديء بسبب خصائصه المنحلة (٢٠) . وانجرف في هذا التيار العالم الانكليزي هربرت سبنسر فنصح بعدم خلط الأجناس المختلفة وأكد على ان تقدم الجنس البشري يتوقف على إنجازات الرجل الأبيض .

أما على صعيد الاجتماع والسياسة فقد ظهرت في هذا الميدان مدرسة المؤرخين البروسيين بقيادة المؤرخ الالماني الشهير هنريخ فون ترتشكه الذي اثرت كتاباته تأثيراً بليغاً في صياغة الايديولوجية الرجعية الاوربية ، بما فيها الايديولوجية القومية الالمانية والقومية اليهودية التي واكبتها حتى أصبح ترتشكه الأب الروحي للحزب النازي فيما بعد .

(٢٠) مكوفرن ، ص ٢٨٦ .

وقد تعاضم الأدب العنصري في النصف الثاني من القرن فأخرج الفون هيلفالد المجموعة الانسكلوبيدية المعروفة باسم Kulturgeschichte وساهم في تحريرها عشرون عالماً من أعلام الفكر العنصري الاوربي ومن بينهم بوخزر وكارل فوغت . وأعطت هذه المجموعة الخطوط الرئيسية للعنصرية : العرق هو الأساس والمبدأ ، العرق الأبيض هو العرق السائد ، نقاء العرق ضروري ، المرأة مخلوق ضعيف متخلف عن الرجل ، العرق الزنجي متخلف تكوينياً ، المساواة فكرة عقيمة ، الفرق بين العرق الأبيض الراقي والعروق الملونة المتخلفة سيظل يتعاضم ولا يتلاشى ، اليهود قوم أجناب وسيبقون غرباء عن بقية الأمة إلى الأبد .

وربما اشتهر أكثر من هذه المجموعة كتاب المفكر الانكليزي هوستن ستوارت تشمبرلين الذي عاش في المانيا وتأثر بالتراث العنصري لها وكرس كل اعجابه للقومية الالمانية والشعوب التوتونية ونشر جل مؤلفاته باللغة الالمانية . وقد وقع أدولف هتلر بسحر ما كتبه تشمبرلين إلى حد ان زاره في آخر شيخوخته وقبل يده على فراش مرضه .

لقد فصل تشمبرلين فلسفته في التاريخ والمجتمع في كتابه « أسس القرن التاسع عشر » الذي أصبح المرجع المفضل للأوساط القومية اليمينية في أوربا الوسطى . وانصب كل تركيز البحث على إعلاء شأن العرق التوتوني الذي وجد نفسه في صراع مستمر مميت ضد الشريعة الرومانية والشريعة الموسوية معاً . التوتونيون - كما رأى تشمبرلن - شعب مفطور على الحرية والملاحظة والاكتشاف . بينما كرس البابليون اهتمامهم لفكرة التطور والاغريق للعلوم والهنود للذرة ، كرس التوتونيون ذهنهم للاكتشاف . وميز تشمبرلين بين روح العلم وروح الاكتشاف بالمقارنة بين اعتقاد الاغريق بفكرة كروية الأرض بنتيجة التأمل النظري والعلمي فقط واعتقاد التوتونيين بكروية الأرض بنتيجة دوران الانسان الفعلي حول هذه الكرة . انها فضيلة الملاحظة والاكتشاف التي لا يمكن ان يتسرب لها خلل أو شك . ومن هذا المنطلق يجب على المؤرخ ان يدرس التاريخ ، بالملاحظة

الموضوعية والاكتشاف . الطبيعة هي كل شيء « والسر في الاكتشاف يكمن في ترك الطبيعة تتكلم » (٢١) .

بيد ان المفارقة العجيبة في الموضوع هي ان تشمبرلين نفسه كان من أول من خرج على هذا المنهج الموضوعي السليم فانتهى من الناحية العملية إلى أسوأ النتائج وأجزلها خطأ وزيفاً . انه درس من أحزن الدروس في صعوبات التفسير الموضوعي للتاريخ .

الفضيلة الرئيسية الأخرى التي لمسها في الشعوب التيوتونية هي فطرتهم القائمة على الحرية والتي جاءت لتندمج بفضيلة المسيحية البروتستانتية . وأصبح تاريخ أوربا برمته مسألة صراع بين الروح الشمالية القائمة على حرية الاختيار والارادة والايان الذاتي وبين الروح الجنوبية لمنطقة البحر المتوسط ، روح الشريعة الرومانية والشريعة الموسوية القائمتين على القهر والاكراه . « اننا نضع جوهر الدين في الانقلاب الروحي للانسان وتوجهه وتفكيره الكامل وشعوره في جانب ، أو نضعه كما في الجانب الآخر في الطقوس الخارجية والخلاص الوارد من الخارج ومن حسابات أعمال الخير والشر والتقييم الأخلاقي القائم على حساب الربح والخسارة » . ويمضي تشمبرلين فيستشهد « بأن بني إسرائيل حولوا الفكرة برمتها إلى مسألة معايير نقدية » (٢٢) .

وهكذا تحول علم التاريخ بأسره إلى نظام فكري عنصري بالغ في مهاجمة الأقوام السامية . فعلى عكس حرية الارادة التي التف حول لوائها التيوتونيون ، « وجد الساميون في خنق الحرية سنة طبيعية » (٢٣) . وقد بقي كتاب « أسس القرن التاسع عشر » المرجع المفضل للأوساط القومية اليمينية في أوربا الوسطى . ولكنه مع ذلك ، لم يستطع ان يكتسح المكانة الأولى التي

(٢١) H . S . Chamberlain ، أسس القرن التاسع عشر ، لندن ، ١٩١١ ، ج ٢

ص ٢٧٢ .

(٢٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٥ .

حظيت بها مؤلفات الأستاذ ترتشكه في أوساط الجامعات الألمانية والنمساوية حيث كان التلامذة الصهيانية وعلى رأسهم ثيودور هرتزل يتلقون دروسهم . وفي هذه الجامعات انتشرت حركات وتيارات مختلفة كان منها في ألمانيا والنمسا حركة الشبيبة التي عرفت باسم Wandervogel . وقد اكتسحت هذه الحركة المدارس والكليات وتلونت بلون عنصري ناصع ترك آثاره في الحركة الصهيونية . وقد عالج موس العلاقة بين الشبيبة الصهيونية وهذا التنظيم ومنه نخلص إلى أن حركة الفاندر فوغل قد تناولت المسألة اليهودية باهتمام كبير . ورغم عدااء قادتها للسامية ، فقد قرروا فتح أبواب المنظمة لليهود على الأساس على اعتبار أن اليهود كالألمان لهم عرقهم الخاص فشر . وقام هذا الأساس على اعتبار أن اليهود كالألمان لهم عرقهم الخاص بهم وتراثهم الفولكي المنفصل وعليه فهم يستحقون من الفاندرفوغل حق قدرهم من الاحترام ، ولكن ليس كالألمان وإنما كشعب مستقل .

ومن هذا المنطلق « أظهرت حركة الشبيبة لحين من الزمن تعاطفاً مع الصهيونية التي اعترفت بها كتعبير عن تطلع اليهود نحو بناء كيانهم الفولكي الخاص بهم . » ويفسر هذا سر انتهاء الصهيانية الشباب إلى تنظيمات الفاندرفوغل . وقد صرح زعيم الشبيبة اليهودية ، موسى كالفري ، في عام ١٩١٦ أن اليهود سيقطعون جذورهم الخاصة بهم إذا تبنا لأنفسهم هوية المانية أو ذهنية المانية . ولإعطاء جناحهم الخاص من الفاندرفوغل طابعه الخاص بهم ، تبنى اليهود اللونين الأزرق والأبيض داخل الحركة (وهما لونا العلم الاسرائيلي) .

ولربما يجدر بنا أن نختم هذا الفصل بهذه الفقرة مما كتبه جورج موس (وهو بالطبع ليس من نقاد الحركة الصهيونية أو المهتمين بها) لتصوير التيارات التي كانت تلعب في ذهن اليهود الصهيانية الشباب الذين قدر لهم فيما بعد قيادة الحركة الصهيونية وبلورة إطارها الايديولوجي :

« لتشجيع التآصر مع التقاليد اليهودية التي أرادوا تحويلها إلى مميزات قومية ، تم تأسيس حركة الشبيبة اليهودية المعروفة باسم بلاوفايز (الأزرق

(والأبيض) . وقد كرس البلاوفاز لتأسيس أمة يهودية ، ولكنها بكل وضوح لم تختلف في شيء عما أرادته حركة الشبيبة الالمانية للفولك الالمانى . وقد آمن كالفري بأن الفرد مرتبط كلياً وبدون انفكاك بالفولك ودعا اليهود إلى اقتداء حركة الشبيبة الالمانية وأساليبها في تحقيق اندماج روحي وثيق ببيئة الفولك وتقاليده ومعتقداته . بيد ان البيئة التي قدر لهؤلاء اليهود ان يعرفوها ويندجوا بها كانت البيئة الالمانية . وكان لا بد لهذه الحقيقة من ان تثير نزاعاً في قلوب من آمنوا بأن فلسطين هي البيئة الحقيقية لليهود . وقد لفت موسى كالفري النظر إلى هذا الازدواج عندما قال لزعيم صهيوني كبير أن أحلامه كانت تنضج تحت أشجار الصنوبر وليس تحت أشجار النخيل .

« ومع ذلك فان كالفري كان صهيونياً تماماً وهاجر من ألمانيا إلى فلسطين في أوائل العشرينات . . . »

إن مما لا شك فيه ان بعض أفكار القومية اليهودية تدين بالكثير للمثل الالمانية . وما صدق بالنسبة لخطابات بوبر صدق بنفس الدرجة بالنسبة للبلاوفاز . وقد اعترف عضو سابق في هذه الحركة بأن ما جذبته إلى حركة الشبيبة اليهودية لم يكن الاخوة اليهودية وإنما المثل البطولية . وبالإضافة إلى ذلك فان الطرف اليهودي من الفاندرفوغل لم يتقبل فكرة البطولة وحسب وإنما تأثر بمؤلفات مثل Jürg Jenatsch لكونارد فردناند ماير ، بل وحتى كتابات شولز نومبرغ عن الجمال الالمانى . وقد نظم هؤلاء اليهود أنفسهم بشكل عصبة وانتقضوا على أفكارهم الأولى عن الديمقراطية واستبدلوها بفكرة الزعامة الأكثر طبيعية وكفاءة . وهكذا نرى هذه الحركة المهمة للشبيبة اليهودية تحاول تطوير هوية صهيونية راسخة بامتصاص جوانب معينة من ايدولوجية الشبيبة الالمانية وإدخالها في إطارها النظري . ونحن نجد هنا مثلاً آخر للتداخل الفكري الالمانى اليهودي . « (٢٤) » .

الفصل الرابع

العرق ونقاء العرق والتفوق العرقي

لقد قامت منظمة اليونسكو بدراسة موضوع العنصرية بصورة مستفيضة وانتهت الى تقارير مفيدة في هذا الميدان. ويتضح من هذه الدراسات وغيرها من المطالعات في هذا الصدد ان العنصرية تقوم بصورة أساسية على الايمان بوجود اختلافات موروثية في الملكات والصفات الذهنية والنفسية والعاطفية والثقافية بين البشر توازي الاختلافات الموروثة في الصفات والقابليات الجسمية، وما يترتب على ذلك من تميز بعض المجموعات بنحو متأصل على المجموعات الأخرى^(١).

وهناك تأكيد بوجه عام في اقوال العنصريين على الصفات الفيزيولوجية للبشر. وبفضل هذا التأكيد على الصفات الفيزيولوجية للوجه والجسم توصل العالم الايطالي سيزار لومبروزو الى نظرياته المشهورة في علم الاجرام القائمة على تقسيم البشر الى فصائل ونماذج حسب نزوعها الى

(١) انظر الموسوعة البريطانية ، Racism .

الجرائم والسلوك الاجتماعي وعلى اساس من مميزات خاصة يمكن تبنيها وقياسها في تكوين الشخص الفزيولوجي . وقد كان لومبروزو يهودياً ايد الحركة الصهيونية في ابان نشوئها وأهدى اليه ماكس نوردو، خليفة هرتزل في قيادة المنظمة الصهيونية كتابه «الانحطاط» تقديراً له على مساهماته العلمية . وكان من الأفكار العلمية التي انتهى اليها لومبروزو ان الفجر شعب من المجرمين الأصليين بكافة العيوب التي يتحلّى بها الجانحون: الكسل، الجهل، الغضب المفاجيء، الغرور، حب القوة، الافراط الجنسي . وعلى نقض ذلك يقف اليهود الذين تقل إجراميتهم عن بقية المجتمع، باستثناء الجرائم الوراثية فيهم والتي تنحصر في التزوير والغش وتجارة الدعارة^(٢) . وقد لاحظ الأستاذ جان هينو ان العنصرية تجزم بأن اي فرد من المجموعة الراقية يتفوق على أي فرد من المجموعة المنحطة مما يدعوا بالنتيجة الى ضرورة تجنب اختلاط دم الاعراق^(٣) . ولعل هذا يذكرنا بسورة الغضب التي انتابت هتلر عندما رأى الرياضي العداء الامريكي الزنجي يفوز على العداء الالماني في المسابقات الاولمبية لعام ١٩٣٦ . ومن هنا أيضا تأتي الحساسية الصهيونية بالنسبة لتوجيه اي تهمة لأي يهودي او تفضيل اي شخص على أي يهودي وما يتبع ذلك من صرخات الاحتجاج والتلويح بمعادة السامية .

وقد أدى الاصرار على نقاء الدم الى ظهور جمعيات الصحة العرقية وعلومها الداعية الى تحاشي تلويث الدم العرقي الارقى بالعناصر المنحطة من المجتمع الانساني كما اسلفنا . وادى هذا المذهب بدوره الى التطبيقات الشنيعة التي جرت في المانيا النازية وافريقيا الجنوبية بالنسبة للزواج المختلط وفصل القوميات والاعراق المختلفة الى حد فرض الطلاق او الافتراق، كما جرى بالنسبة لليهود في عهد عزرا . والواقع انه يمكن القول بأن احسن

(٢) C. Lombroso ، الانسان المجرم ، نيويورك ، ١٩١١ ، ص ١٤٠ .

(٣) أربعة بيانات عن العنصرية ، مسألة العرق ، اليونسكو ، ١٩٦٩ .

اختبار عملي للتحقق من الهوية العنصرية لأي انسان يكمن في تبين موقفه من مسألة الزواج المختلط .

وهنا لاحظ العنصريون ان الزواج اللحمي (الزواج ضمن العشيرة Endogamy) الذي يدعون إليه قد سار عليه اليهود لما يقرب من ثلاثة آلاف سنة فلفتت نظرهم هذه الظاهرة باستمرار وأمعنوا في تفسيرها واستخراج مدلولاتها . وهنا وقع العنصريون في مأزق . فقد كان منطق نظرياتهم يقتضي الاعتراف بارتقاء العنصر اليهودي على أساس التسليم بنقاء الدم اليهودي وهذا بالفعل ما وقع فيه نيتشه في بعض مطالعاته . وأعجب بالفعل كثير من العنصريين بذكاء اليهود وبراعتهم وقدرتهم على البقاء عبر آلاف السنين . ولكن كرههم لليهود ومعاداتهم للسامية دفعتهم من الطرف الآخر إلى الخروج على هذا المنطق وإدانة اليهود بالتفسخ والطفيلية والخبث والشر .

وقد انبرى تشمبرلين لحل هذا المفترق الفكري فنفى نقاء الدم عن اليهود والتجأ إلى التاريخ ليوضح بأنهم في الحقيقة مجرد خليط من العناصر نشأ من تزاوج البدو الساميين بالحِيثين والعموريين والآراميين وسواهم . وبعد تقويض فكرة نقاء الدم اليهودي ، استطاع تشمبرلين ان يمضي لينفي عن اليهود أي ميزة راقية ويدينهم بكل الشرور الممكنة . وتناول تشمبرلين المشكلة الثانية التي جابهت العنصريين الاوربيين وهي ان السيد المسيح الذي يجلولونه ويعتبرون تعاليمه جزء من التراث الفولكي التوتوني كان يهودياً . وهنا بين تشمبرلين ان المسيح لم ينحدر من اليهود لأنه جاء من الناصرة ولم تكن منطقة الناصرة من المناطق الأهلة باليهود بل كانت تسكنها أقوام فلسطينية أخرى . واستند في ذلك إلى النصوص العبرية الجغرافية القديمة التي كانت تشير إلى منطقة الجليل باسم جليل هاغوييم Gelil Haggoyim التي تعني « ديرة الوثنيين » (٤) .

(٤) تشمبرلين، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

بيد أن رأي تشمبرلين لم يؤخذ مأخذ الجد في الأوساط العنصرية واستمر مفكروها بنحو عام على الايمان بنقاء العنصر اليهودي حتى رأينا أدولف هتلر يتساءل في « كفاحي » ويقول « أين يمكننا ان نجد شعباً آخر غير الشعب اليهودي لم يتعرض طيلة الألفي سنة الماضية لغير القليل من التغير في الذهنية والشخصية ؟ » ^(٥) وظل الأدب العنصري يعج بكلمات « اليهودي الأبدي » و « الدولة ضمن الدولة » و « اليهودي اللامدمج » و « انغزالية اليهود » الخ . وظهرت سيماء اليهود في الصور الكاريكاتورية والأدبية بهيئة القامة القصيرة والأنف المقوس والشعر الأسود المجعد والعيون الغامقة الماكرة .

وأجمع العنصريون على أن اليهود شعب غريب في أوروبا وان وجوده الشاذ فيها يحيق بها شروراً مستمرة . وأصبحت كلمات تترشكه « اليهود مصيبتنا » شعاراً للنازيين . وسلم الجميع بأن عدااء اليهود شيء طبيعي وحتمي . ورددت موسوعة الفون هيلفالد هذا الرأي بالقول « ان التحامل المعادي لليهود هو نوع من الشعور الغريزي والطبيعي الذي يظهر وينكشف كلما اجتمع أناس مختلفون عرقياً واتصلوا مع بعضهم البعض » ^(٦) . وقد رأينا كيف أشار فخته إلى حتمية الشخصية اليهودية وكيف رأى ان الحل الوحيد لها هو في قطع رؤوس اليهود واستبدالها برؤوس جديدة إذا لم يمكن إخراجهم إلى فلسطين .

ووجدت كل هذه الأفكار صداها في الحركة الصهيونية واعترف بالفعل قواد هذه الحركة بالتقاء آرائهم مع آراء المعادين للسامية وتعاونوا عملياً معهم في مواقف مختلفة مما يعتبر حقائق مسلم بها ولا تستدعي مزيداً من القول هنا . وبالاعتماد على التراث التقليدي للجانب العنصري من اليهودية ، لم يجد المنظرون الصهيونيون صعوبة في تبني نظريات العرق

(٥) هتلر ، كفاحي ، لندن ، ١٩٣٩ ، ص ٢٥١ .

(٦) بولياكوف ، ص ٢٧٤ .

والوراثة ونقاء الدم والزواج اللحمي . وقد كتب ناحوم سوكولو ، رئيس المنظمة الصهيونية فقال :

« ان هناك أجناساً توجد في الطبيعة . النسر لا يكدم من أجل إطعام السمك ولا الأسد من أجل إطعام القط . . . هاكم انظروا إلى الأشجار والقمح الناضج ، أتصورونها تنمو بهذا الشكل الرائع ، بهذا الزهو وهذا الغنى ، لو اننا فرضنا عليها الاختلاط والامتزاج بعضاً ببعض بحيث يقوم أحدها بامتصاص نسغه من الآخر ؟ » (٧) .

ويتوقف الباحث حائراً في مقابلة هذا النص مع تعاليم عزرا أو مع تعاليم الفون ترتشكه في قوله :

« ان الطبيعة لتأثر لنفسها من أي خلط بين الأجناس فتجعل النوع الأرقى ينحجب تحت وطأة النوع الأحمط . وكما يحصل الإنسان من مزاجية الحصان بالحمار على حيوان يتصف بصفات الحيوان الأقل شرفاً ، كذلك يكون الشأن بالنسبة للكائن البشري . » (٨) .

وقد كانت مسألة الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود وتعاظمها في أوروبا في العصر الحديث من العوامل الرئيسية التي أشار إليها الصهاينة كمبرر لإخراج اليهود وإعادة تمهم إلى فلسطين، وامتلاّت على هذا الأساس الأدبيات الصهيونية بإحصائيات الزواج المختلط والهلع الذي تستوجبه . وقد تقبل الصهاينة بامتنان ادعاء العنصرين بعرقية اليهود وأصالة دمهم ونقاء عنصرهم . وقد وقف الصهاينة في مناسبات مختلفة ضد المقترحات التي تقدمت بها الحكومات الليبرالية الأوروبية لمقاومة معاداة السامية وحل المشكلة اليهودية بادماج اليهود في جسم المجتمع وتوزيعهم ديموغرافياً بما يضع حداً لانعزالهم وتكتلهم . ومن أوضح الأمثلة على ذلك إفادة هرتزل أمام اللجنة الملكية البريطانية بشأن الهجرة اليهودية إلى انكلترا . ونجد حتى الاشتراكي

(٧) سوكولو ، تاريخ الصهيونية ، جـ ٢ ، ص ٦ .

(٨) H. Trietschke ، السياسة ، لندن ، ١٩١٦ ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ .

بروخوف يقول « ان الفصل عن العالم الخارجي . . . ضروري لقيام الأمة » (٩) .

وكتب ل . سيمون في الزاينست بولتن تحت عنوان « اليهود واليهود الانكليز » فقال « ان اليهودية لا ترجع إلى تعاليم دينية وإنما إلى العرق » . وبشيء من التلاعب اللغوي ادعى بأنها تختلف عن المسيحية التي تنسب إلى المسيح والمحمدية التي تنتسب إلى محمد . لو كانت اليهودية ديناً لسميت بالموسوية وليس باليهودية نسبة إلى الشعب . وكرر سيمون الادعاء العنصري بأبدية اليهودي فقال ان اليهودي يبقى يهودياً حتى لو اعتنق المسيحية .

وعرف سوكلو القومية بأنها تعتمد على « الأصل والتضامن التاريخي والمميزات العرقية » . ومن هذا المنطلق كتب عن نفسه قائلاً « ان دمي وعريقي وذهنيتي وذوقي وذكرايتي وأمنياتي كلها يهودية . » (١٠) وتعرض في كتابه « اليهودي الجديد » إلى اليهودية الاصلاحية التي ظهرت في المانيا فاعتبرها مجرد تقليد اعمى للبروتستانتية الالمانية ولكن « كثير من الاعراق والأمم تؤمن بالبروتستانتية ، أما اليهودية فهي ديانة أحفاد الشعب اليهودي فقط » (١١) .

وهناك في مذكرات هرتزل إشارات عديدة إلى هذه المميزات العرقية التي تعطي اليهود قوميتهم من القامات القصيرة إلى الأنوف والشعر والأرجل التي وصفها أحياناً الزعيم الصهيوني بعبارات متقززة واستهجنها على النحو الذي يفعله العنصريون المعادون للسامية . وتساءل هرتزل يوماً من زميله نوردو عن سر الصداقة الحميمة التي جمعتها فنفي نوردو أن يكون سر ذلك في العقيدة اليهودية وأضاف « ولكننا من عرق واحد » (١٢) .

(٩) بروخوف ، ص ١٤٤ .

(١٠) سوكلو ، تاريخ الصهيونية ، ص ٤٨ .

(١١) سوكلو ، اليهودي الجديد ، ص ٧ .

(١٢) يوميات هرتزل ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

وتردد نفس الموقف في الكتاب الكلاسي للصهيونية « الانعتاق الذاتي » . أكد المؤلف الرائد ، ليوبنسكير (وكان طبيباً) ان اليهود ينتمون إلى سلالة مشتركة غير مختلطة بعنصر آخر . « انهم يشكلون عرقاً قائماً بذاته لا يمكن ان يندمج بسهولة مع أية أمة أخرى أو يذوب فيها » . انهم عنصر مستقل . واتفق بنسكر مع الموقف العنصري بحتمية اضطهاد اليهود ومعاداة السامية ونحا باللوم على اليهود الذين يطالبون بالعدالة من الاغيار (١٣) .

وتجلى هذا المنحى بصورة أتم وأشمل على يد موسى هس الذي سخر دراسته لعلم الأجناس ليعطي ثوباً علمياً لأقواله في كتابه المشهور « روما واورشليم » . وكان موسى هس ماركسياً في بادئ حياته السياسية ولكنه تخلى عن الماركسية وعبر عن ارتداده هذا بالتأكيد على ان « النضال العرقي هو النضال الأولي والنضال الطبقي نضال ثانوي » . وتعرض إلى الأمية فاعتبرها مناقضة لسنن الحياة ووقائعها ، فالاختلافات بين الشعوب حقائق لا مناص منها لأن الأعراق أساسية وتتطور بصورة منفصلة مما يجعل الفوارق العنصرية أصيلة وليس طارئة . الثقافة اليهودية تختلف عن الثقافة اليونانية لأن الأولى وليدة العرق اليهودي والثانية وليدة العرق الهندوجرمانى . وقد بقي العرق اليهودي نقياً لا تشوبه شائبة غريبة . « لا يمكن إصلاح الأنف اليهودي أو تغيير الشعر الأسود اليهودي باعتراف دين آخر » . ومضى موسى هس في الخط العنصري القائم على ربط المميزات الفزيولوجية بالصفات الخلقية والذهنية فأكد على ان الوجه اليهودي يعبر عن مشاعر روحية جميلة . ويسود العرق اليهودي على غيره من الاعراق في أحوال الزواج المختلط . (١٤) .

يعكس الوهم الذي وقع به موسى هس بغلبة ما سماه بالعرق اليهودي على الأعراق الأخرى في الوراثة الاضطراب الفكري للعنصرية من

(١٣) Auto - Emancipation , L . Pinsker ، ص ١٦ ، ٢٠ ، ٢٣ .

(١٤) Moses Hess ، روما واورشليم ، الرسالة الرابعة .

فأكد على وجود شخصية يهودية متميزة في الفنانين اليهود عبر كافة عصور التاريخ و « ان الفنان اليهودي يستمد شخصيته القومية بصورة رئيسية من الصفات التي جاءت عن طريق الوراثة » . ومضى سوكلو ليصرح قائلاً : « بالنظر إلى أن الأساس العنصري هو بدون شك عامل فعال في الفن ، فقد وجدنا ان أعمال الهوزارين في بودابست والماسرينين في روما والبوسارتين في ميونيخ تشترك بشيء واحد . . . ذلك انهم ليسوا بهنغاريين ولا إيطاليين ولا المان . إنهم يهود . » (١٧) .

وقد وصل الاعتزاز الشوفيني حداً من الغرور والكبرياء جر على اليهود في مناسبات عديدة ويل الأوروبيين وسخطهم . ومن الوقائع الطريفة في هذا الصدد ظهور « جمعيات مقاومة الغرور اليهودي » في كثير من مدن أوروبا الوسطى . ولاحظ كثير من المراسلين والمراقبين الغربيين ظاهرة الغرور المفرط في إسرائيل والاعتزاز الشوفيني الذي وصل حد الانطوائية والانغلاقية . وانتقد مثل هذه الظاهرة بشدة حتى الكتاب الذين أيدوا إسرائيل مثل آرثر كويسلر (١٨) . وأعطانا الكاتب الصهيوني زف أمثلة عجيبة من الاستعلاء القومي ومنها ان حضارة الاندلس كانت حضارة يهودية وان فتح الاندلس يعود إلى اليهود وليس إلى العرب لأنه وقع على يد البربر والبربر من أصل يهودي . ومثل ذلك عن اكتشاف أمريكا لأن كولومبوس ، على رأي الكاتب ، كان يهودياً واعتمد على جداول وخرائط وأدوات بحرية من عمل اليهود واختراعهم . واليهود هم الذين اكتشفوا الحروف الابدجية وتركوا أول وثيقة فيها . وعندما دخلوا فلسطين دخلوها كشعب متمدن ومثقّف وليس كبدايين كما يسجل المؤرخون . . . الخ (١٩) .

وتعطي الكتب المدرسية الاسرائيلية أمثلة جيدة لهذا الاتجاه بإرجاع معظم الانجازات الانسانية إلى الأدمغة اليهودية واعتبار جل التاريخ

(١٧) سوكلو ، تاريخ الصهيونية ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

(١٨) انظر كتابه « الوعد والتنفيذ » .

(١٩) The Rape of Palestine , W . Ziff ، لندن .

حيث غلبة النوع الأرقى أو الأخط في حالة الزواج المختلط . ولكن موسى هس انجرف هنا عاطفياً وراء الايمان بتفوق العرق اليهودي في كل شيء واستصعب أن يرى ابن اليهودية يخرج بأنف زنجي . وقد وجد الصهاينة رصيماً لهم في هذا الميدان في الجانب العنصري من اليهودية في فكرة الشعب المختار والشعب المقدس وشعب الأنبياء . وطالما أشار المنظرون الصهيونيون إلى ظاهرة بقاء اليهود كل هذه القرون الطويلة دون بقية الأمم كدليل على تفوقهم وشرف عرقهم . وقد غصت رسائل موسى هس بأمثلة طريفة من الخزعات الشوفينية نذكر منها :

- لقد عاش اليهود بين الأمم لما يقرب من ألفي سنة وعليه فلا يمكن أن يصبحوا مجرد جزء لا غير من الكيان العضوي الشامل .
- اليهود فقط يتمتعون بالحصافة الجيدة التي تجعلهم يضعون الحب العائلي قبل الحب الجنسي .
- لا محل لحب العائلة المطلق في أي قلب غير القلب اليهودي .
- اليهود فقط قادرون على الارتقاء إلى القمم الروحية (١٥) .

وعلى الرغم من التقدم العلمي والانساني الذي تلاحظ كتاب « روما واورشليم » ، فقد ظل دعاة الصهيونية يرددون نفس التبجح العنصري فذكر القاضي برانديز في سنة ١٩١٥ « ان من يجري الدم اليهودي في عروقه يكشف عن تفوق معنوي أو فكري أو عن عبقرية أو موهبة خاصة حتى لو كان قد تخلى عن العقيدة اليهودية مثل سبنيزا وماركس ودزرائيلي وهيوم » (١٦) . وطالما أشار الدعاة الصهاينة بتبجح إلى الانجازات الكبيرة التي حققها يهود في ميادين العلم والأدب والفن ، ولكنهم لم ينظروا إليها كجزء من التقدم الاوربي للطبقة الوسطى المتعلمة التي انتمى إليها اليهود ، وإنما كنتيجة وراثية لأصلهم العرقي . وقد شرح هذا الرأي ناحوم سوكولو

(١٥) موسى هس ، الرسائل ١ ، ٢ .
 (١٦) اقتباس في « اليهودي الخالص » ، عبد الوهاب المسيري ، من منشورات المؤتمر

الفكري حول الصهيونية ، بغداد ، ١٩٧٦ .

الحضاري القديم للشرق الأوسط تراثاً يهودياً . ولهذا الاتجاه التفوقي ما يقابله من أصول وجذور في الحركات القومية الشوفينية والعنصرية السلافية والتبوتونية كما أشرنا في أماكن أخرى من هذا البحث .

الفصل الخامس

أبعاد المدرسة العنصرية

يتضح مما سلف ذكره عن الوضع العنصري في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، ان العنصرية لم تكن مجرد إيمان ضيق بتقسيم البشر إلى أعراق منفصلة وإنما تعدت ذلك لتصبح طريقة في الحياة وفلسفة اجتماعية شاملة . وقد قامت هذه الفلسفة على أسس واضحة تبناها العنصريون في معالجتهم لمواضيعهم . ونذكر من هذه الأسس التأكيد على « الصحة العرقية » والزراعة والطبيعة والتعلق بالماضي - وهو ما عاجلناه آنفاً - والتقليدية والتعدد بدلاً من التوحيد والدولوية (تضخم سلطة الدولة Etatism) والتشاؤمية والمثالية والبطولة الفردية والرومانطيقية واللاعقلانية^(١) .

وكما سبق أن ذكرنا ، تفاقمت الرجعية العنصرية كرد فعل لما جاءت به الثورة الفرنسية . وقد استنتج الرجعيون ان كل الهزات التي تعرضت لها أوروبا وقعت نتيجة لتمرد المواطن على سلطة الدولة . وبعد أن وضع مؤتمر

(١) انظر تشريح مكوفرن في هذا الصدد .

فينا أسس السلام والاستقرار بدعم الأنظمة القائمة ورد أي محاولة لتحديها ، انبرى المفكرون المؤيدون لهذا الخط ليجعلوا سلطة الدولة فوق كل شيء . انه المفهوم الذي تعارفنا عليه باسم « المصلحة العامة » . وقد فلف المفكر الايطالي جنتيل ، أبو الفاشية ، هذا الموقف بفكرة الكوربوراتزم التي فسرها بقوله ان الانسان ليس بحيوان منعزل عن غيره وإنما هو عضو في جماعة . وهذه الجماعة بدورها هي عضوة في مجموعة أكبر هي الدولة . وعليه فمن واجب الانسان ان يمثل لمصالح هذه المجموعة العليا ، وبالتالي من حق هذه المجموعة ان تفعل بالفرد ما تشاء لصالحها العام .

وبظهور المشاكل العمالية وما تطلبت من إصلاح وضمان لحقوق العمال وما تبع ذلك من الأفكار الاشتراكية ، انبرى الدولويون إلى الادعاء بأن الضمانات الاجتماعية المطلوبة هي في الواقع جزء من مهمة الدولة والمصلحة الوطنية العامة ، وعليها ان تفرض ما تراه من التشريعات والتنظيمات في هذا الصدد وعلى الجميع أن يحترموا ذلك لأن الدولة كما عرفها جنتيل هي دولة الشعب وبهذه الصفة هي الدولة المثلى للديمقراطية . وتبعه موسوليني ليصف ديمقراطية الفاشية بأنها « الديمقراطية المنظمة » .

ولا شك ان التطبيقات العملية لهذه الفلسفة كما أخذت طريقها في المانيا وايطاليا معروفة لدى أكثرنا في استخفاف السلطة بحياة الفرد الخاصة ، بمشاعره ، بتعلقه بأرضه وبيته ، بطريقة حياته . . . الخ . للسلطة ان تحرك أي مجموعة من مكانها وتنقلها أتى شاءت ، بل وأصبح من حقها أن تتدخل حتى في حياة الانسان العائلية والجنسية فتقضي بقطع نسل الأشخاص الضعفاء والمتخلفين وتشجيع التناسل بين الافراد الممتازين . وفي هذا الاطار أصبحت المشاكل العمالية وعلاقة العامل برب العمل رهناً بما تقرره الهيئات الرسمية المكلفة بالمهمة وفق ما تقتضيه المصلحة العامة .

وقد حدث تداخل في أكثر الأحيان بين العنصرية والدولية وغالباً ما وجدت الأولى نفسها مضطرة إلى استعمال الإكراه والتسلط والدكتاتورية

وكبت حقوق الانسان المدنية ، بينما أدت الثانية بصورة أو أخرى إلى التأكيد على العنصر الحاكم المتسلط والتشكك في العناصر المحكومة .

وعلى الرغم من الجانب اللبرالي والبرلماني الذي اعتاد عليه اليهود في أوروبا الغربية وأمريكا ، فإن صوراً من هذه الدولوية ظلت ملازمة للحركة الصهيونية منذ نشأتها ووجدت أصداء لها في تفكير رواد الحركة . فمن الملاحظات التي سجلها هرتزل في يومياته ان الديمقراطية الجمهورية غير صالحة لليهود وان الملكية المطلقة يجب ان تكون الشكل السياسي للوطن القومي . ولم تحمل زعامة بن غوريون لحزب العمال ونقاباتهم دون تصريحه بأن « مجلس اللوردات هو أرقى مؤسسة موجودة في العالم » . (٢) .

لقد دأب المعلقون العالميون على التأكيد على ديمقراطية إسرائيل والاشارة إلى تقرير الحكم فيها عن طريق الانتخابات العامة وحرية الصحافة . ولكن هذا الوضع كما يبدو وضع مرحلي أملتته ضرورات تأسيس الكيان اليهودي الصهيوني واجتذاب المستوطنين من الخارج واستدراار الأموال من الدول الرأسمالية . ان الكيان الصهيوني ما زال حديث العهد ومن المحتمل بعد زوال الضرورات المشار إليها وتحقق ظروف مختلفة أخرى أن يستولي على الحكم فرد أو فريق من الكتل السياسية يفرض على الجميع حكماً ديمقراطياً قد لا يختلف كثيراً عن أي دكتاتورية أخرى . وربما تأتي مثل هذه الظروف بشكل تكاثر سكاني حاد عند الأقلية العربية وتعاضم وعيها القومي . وسبق بالفعل ان تلقينا إشارات في هذا الاتجاه في الوثيقة السرية المعروفة بخطة كونيغ التي نشرتها جريدة « عال همشمار » في ٧ أيلول ١٩٧٦ . وفيها أشار كونيغ بهلع إلى فوز المرشحين اليساريين في المناطق العربية فدعا إلى تدخل السلطة للتخلص من مثل أولئك الزعماء الذين « لا يمثلون الدولة » (٣) .

(٢) بن غوريون ، ص ١٩٣ .

(٣) بولياكوف ص ٣٠٢ ، ٣٠٤ .

والحقيقة ان الكيان الصهيوني قد سبق وأعطانا بالفعل خيوطاً وألواناً من الدبلوماسية ولربما وجد الباحث ان اتحاد النقابات الاسرائيلية أقرب إلى كوربوراتزم الفاشية منه إلى الاتحادات النقابية في الدول اللبرالية . فاهستدروت الاسرائيلي من أكبر التنظيمات الرأسمالية في إسرائيل . إنه يؤسس الصناعات ويستخدم العمال ويتصرف بالمنتجات ضمن إطار المخططات السياسية الصهيونية . وكمثال للتعبئة الدولية للعمال نشير إلى الصناعات التي أقامتها إسرائيل في منطقة الجليل لا لغرض سوى تشغيل المزيد من اليهود فيها وتوطينهم هناك لتلافي التكاثر السكاني العربي .

ويقال مثل ذلك عن الكبوتر في القطاع الزراعي ، فان كثيراً من هذه المزارع غير اقتصادية ولا عملية وتفرض على أعضائها تضحية مستمرة ولكنها تؤسس وتبقى في الوجود من أجل المصالح العليا للكيان الصهيوني . ونشير هنا إلى مزارع النحال التي تقام على الحدود وفي المناطق الاستراتيجية العسكرية تحت ظروف تفرض على ساكنيها حياة مليئة بالصعاب والحرمان والمخاطر .

وكل ذلك جزء من روح التضحية التي يفترض ان يقدمها الفرد اليهودي لكيان الدولة اليهودية ، والتي عبرت عن نفسها في أشكال مختلفة في السلم والحرب . على نقیض كافة دول العالم تصر إسرائيل على المغامرة بحياة الأبرياء من الرهائن والمسافرين جواً والتضحية بها من أجل دحر محاولات الاختطاف . وتعطي المؤلفات والأفلام السينمائية الصهيونية باعتراز وفخر قصص التضحيات البشرية والانتحارية التي غصت بها المسيرة الصهيونية . وطالما لوحت الصحافة العالمية إلى الأرواح البشرية التي قدمت قرباناً للمخططات الصهيونية . ولعل في كلمات حיים وايزمان الشهيرة في عام ١٩٣٧ عن إنقاذ شباب يهود أوربا لتوطينهم في فلسطين وترك الأكثرية الباقية لتصبح « رماداً بشرياً » ما يكفي في هذا الصدد . والواقع اننا نجد بلاغة أوسع وأعمق في عموم الموقف الذي اتخذته الوكالة اليهودية إبان الحرب العالمية الثانية في تأكيدها على إنقاذ الشباب (الأقدر على مقاومة البطش

النازي) وترك الضعفاء والشيوخ (الأجدر إنسانياً بالانقاذ) ليهلكوا تحت أقدام النازية .

وتتغلغل هذه الفكرة ، فكرة رخص الفرد أمام كيان الدولة في كافة قطاعات الحياة . وعندما طالبت نساء تل أبيب في مارس ١٩٧٦ بتعديل القانون بما يسمح بإعطاء المرأة حق الاجهاض ، ثارت زوبعة من الاحتجاج ضد هذا المطلب ، انضم إليها حتى الأطباء أنفسهم زاعمين بأنها ستؤدي إلى انتحار قومي لاسرائيل نتيجة انخفاض نسبة الولادة . ما تعانيه المرأة من أعباء الحمل والولادة الشرعية واللاشرعية ضد إرادتها وإرادة ذويها شيء ثانوي أمام حاجة الدولة إلى المزيد من الأولاد شرعيين كانوا أم لقطاع ، طالما كانت الأم يهودية .

ولا شك أن بإمكان المفكر الصهيوني أن يرد على ما سلف بأن مثل تلك التضحيات والمعاناة قد قدمت طوعاً ولم تفرضها الدولة على أحد . وربما كان هذا الرد صحيحاً إلى حد كبير . ولكن نفس الردود تنطبق على المانيا هتلرية وافريقيا الجنوبية وروديسيا . فليس هناك أدنى شك في ان الالمان الذين كدحوا وعانوا وقتلوا بقيادة هتلر فعلوا ذلك إيماناً منهم بالرايخ الالمانى وبمسؤولياتهم . وأولاً وآخراً ان هتلر لم يغتصب الحكم من أحد وإنما جرى انتخابه بحرية . وعلى نحو مشابه جرى انتخاب حكومات الأقليات البيضاء في افريقيا الجنوبية وروديسيا .

لقد ظلت مشكلة السكان والتضخم السكاني من ناحية وحاجة الدولة إلى المزيد من القوة البشرية لشد أزرها من ناحية ثانية واستقطاب الدم العنصري النقي من ناحية ثالثة نقطة رئيسية في التفكير العنصري الاوربي . أكد أساتذة هذا الفكر على التوسع كعامل حيوي وديناميكي في الدولة وأدى الاصرار على التوسع إلى التأكيد على الوقود اللازم للتوسع وهو المادة البشرية النقية . وقد بلور هذا الاتجاه العالم الالمانى فردريك رتزل في مقالة نشرها في عام ١٩٠١ بعنوان « مجال الحياة » Lebensraum الشعار الذي أصبح

مطلباً رئيسياً للتوسع النازي فيما بعد . وادعى رتزل بأن هناك قوانين حيوية للدولة تملي عليها التوسع وابتلاع المزيد من المناطق المجاورة .

وبعد سنوات قليلة نشر جوزيف راينر قبيل الحرب العظمى كتابه الشهير *Een Pangermanistische Deutschland* الذي أصبح بدوره دستور الرايخ النازي . وتحدث راينر في هذا الكتاب عن ضرورة تأسيس امبراطورية المانيا الموسعة والتي يقطنها المان فقط مع بعض الفئات التي يمكن امتصاصها وإذابتها . واستثنى من ذلك اليهود والسلافيين الذين لا يمكن امتصاصهم ومن ثم ينبغي إخراجهم من البلاد . وبهذا الأسلوب وضمن إطار المانيا الموسعة سيتمكن تحقيق الاشتراكية الأمية - كما قال . ونادى مفكر آخر هو هنريخ كلاس بتبادل السكان - أي إرجاع الالمان من الشتات الجرمانى الخارجى إلى المانيا الأم وإخراج اليهود بدلاً منهم ليذهبوا ويعيشوا في فلسطين . وأصبح شعار الرجوع إلى أرض الأجداد شعار الحزب النازي في دعوته لاعادة الالمان وتجميعهم . أما من لم يمكن إرجاعه من الأقليات الالمانية إلى أرض الأجداد فقد أصبح من اللازم تقوية هويتهم وثقافتهم الالمانية وارتباطهم بالمانيا وبذل كل شيء للحيلولة دون اندماجهم بشعوب البلدان التي يتواجدون بين ظهرانيها (٤) . ولا شك اننا نجد هنا تطبيقاً من تطبيقات الدولة يعتمد على الاستخفاف بشخصية الفرد وأمانيه وإرادته وميوله وتجاهل ذلك أمام المتطلبات الامبراطورية العليا لشعار « المانيا فوق الجميع » .

ولا يخفى على القارئ التطابق الظاهر بين هذا التفكير والتفكير الذي سارت عليه المنظمة الصهيونية بالنسبة لفلسطين . لقد أصبحت عبارة « تبادل السكان » التي أكد عليها العنصريون الالمان المفتاح الأولي للمحاججات والبيانات الصهيونية فيما يتعلق باللاجئين العرب واعتبار خروجهم من ديارهم بمثابة استبدال لهم باليهود العرب . ويلاحظ بجلاء

(٤) E . M . Kulischer ، إزاحة السكان في أوروبا ، مونتريال ، ١٩٤٣ ، ص ٢٦ .

الانغماس المفرط في قضايا السكان وتهجيرهم واستيطانهم وإعادة توطينهم كما لو كانوا دمي على لوحة شطرنج . ولا يقتصر الموضوع هنا على اللاجئين والمواطنين العرب فقط بل يتعداه إلى اليهود أنفسهم . ويلاحظ قارئ الوثائق الصهيونية بسهولة ووضوح الاعتباطية والسلطوية التي تتحدث بنبرتها المنظمة الصهيونية بالنسبة لتهجير المواطنين اليهود في بلدان العالم المختلفة وكأنهم محرومون من أي إرادة خاصة بهم . وفي التقرير الذي أعد للمؤتمر اليهودي الأمريكي ، كتب الحاخام كلاوزنر متحدثاً عن اليهود المشردين في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية قائلاً : « يجب ان نتذكر اننا نعالج مسألة أناس مرضى . ليس من واجبنا ان نسألهم عما يريدون ، وإنما علينا ان نغلي عليهم ما يجب ان يفعلوا وسيكونون شاكرين لنا »^(٥) . وربما يجدر بنا في هذا الصدد ان نعطي صورة من البلاستيكية التي ينظر بها المفكر الصهيوني إلى جموع السكان فنقتبس من خطة كونيغ التي أشرنا إليها آنفاً :

« إن نسبة ازدياد السكان العرب في إسرائيل هي ٥,٩ ٪ ، في حين انها ليست سوى ١,٥ ٪ بالنسبة للسكان اليهود .

« ان المشكلة مطروحة بصورة خاصة في المناطق الشمالية ، حيث يتركز قسم كبير من السكان العرب . ففي حوالى أواسط سنة ١٩٧٥ كان سكان هذه المنطقة يعدون ٢٥٠,٠٠٠ نسمة ، في حين كان السكان اليهود يعدون ٢٦٩,٠٠٠ نسمة . وإذا تفحصنا هذه المعلومات بالتفصيل ، في كل دائرة ، وجدنا ان العرب يمثلون ٦٧ ٪ من مجموع السكان في الجليل الغربي و ٤٨ ٪ في وادي عزرائيل . (وقد تزايدت الفئتان في هذه المناطق في عام ١٩٧٤ بمعدل ٧٥٩ شخصاً في الجانب اليهودي و ٩٠٣٥ شخصاً في الجانب العربي) .

« وعلى هذه الوتيرة من التزايد ، يمكن للعرب ان يشكلوا ٥١ ٪ من سكان هذه المنطقة في ١٩٧٨ .

(٥) اقتباس من الفريد لنتال ، بأي ثمن إسرائيل ، شيكاغو ، ١٩٥٣ ، ص ١٩٥ .

اقتراحات :

« أ - توسيع وتكثيف الاستيطان اليهودي في كل المناطق حيث يقيم العرب بصفة دائمة ، ودراسة كل إمكانيات بعثرة التجمعات العربية الموجودة من قبل . ويجب توجيه اهتمام خاص إلى المناطق المحاذية للحدود الشمالية الغربية ولمنطقة الناصرة . وإلى جانب ذلك ، يجب الحرص على تطبيق صارم للقوانين التي يمكنها ان تمنع إنشاء مستوطنات عربية في مختلف أنحاء البلاد » .

ومما لا غنى من التأكيد عليه ان أفكار إخراج العرب من فلسطين أو استبدالهم باليهود العرب أو طردهم بالقوة مما أصبح موضوعاً كلاسيكياً معترفاً به الآن هو ليس مجرد ضرورة صهيونية من ضرورات الوضع الفلسطيني أو الحاجة إلى أراضي العرب أو ضمان الأكثرية اليهودية في البلاد . إنه بنفس الوقت عرض من أعراض الايديولوجية العنصرية تبناه الالمان أولاً وتقبله سواهم من العنصريين المحدثين ويكشف عادة عن نزوع عنصري في ذهن صاحبه . وربما تتجلى الصورة بشكل أوضح عند مقارنة ذلك بالأمة العربية التي يحق لها ان تفتخر بأن حكامها وزعماءها لم يفكروا مرة في استبدال الاقليات القومية أو الدينية بالأقليات العربية أو المسلمة في أي جزء من العالم سواء بالنسبة لعربستان أو كردستان أو الاسكندرون أو الجزائر أو السودان أو الخليج .

إن ارتباط العنصرية بردود الفعل ضد تطورات الثورة الفرنسية والثورة الصناعية أعطاها مسحة تشاؤمية عامة . ويعود جزء كبير من الانشغال بالمشكلة السكانية المشار إليه سلفاً إلى أفكار المدرسة الاقتصادية المتشائمة التي لوحث بالويل والثبور نتيجة تضخم السكان. وفي هذا الاطار بدا المستقبل للعنصريين حالكاً ملبداً بالأخطار ومحاطاً بالاعداء ومثقلاً بالعلل والمشاكل الباقية . هكذا صورت النازية المانيا للشعب الالمانى بأنها دولة محاطة بالاعداء من كل جانب في الوقت الذي كانت هي فيه العدو الوحيد لكل من أحاط بها . وكثيراً ما عمد العنصريون أمام هذه الصورة

الكالحة إلى التهرب من الواقع الحاضر ، اما إلى التلد والماضي ، واما إلى المستقبل الطوبائي البعيد الحافل بالانتصارات والآمال . العنصرية صورة من صور العجز عن التكيف مع الواقع .

والصهيونية من أولها إلى آخرها عبارة عن فيلم متسلسل من الحلقات التشاؤمية . هناك أولاً معاداة السامية التي اعتبرها كافة الصهاينة أبدية أزلية ، أو كما وصفها بنسكر بمرض وراثي مستمر لا سبيل إلى التخلص منه بغير الهرب إلى كيان يهودي . وما ان أقيم هذا الكيان حتى جاءت الحلقة التالية في صورة الاعداء العرب العازمين على إلقاء اليهود في البحر . وسرعان ما انتقلت السلسلة بعد دحر العرب إلى روسيا أو الدول الكبرى عموماً وتآمرها على أمن إسرائيل . ومن الصور النفسية التي تلفت النظر في الأدب الصهيوني صور المكروبات والبكتريا والأموات والأشباح . وفي هذا العالم الخالك يصبح الحديث عن الأمن الدولي والأخوة البشرية وسلطة الأمم المتحدة ومبادئ الأمية خرافات هراء . في هذه الذهنية السوداوية ينصرف الاهتمام إلى السعي وراء الثأر والقصاص وتبادل الجثث .

ومقابل هذه الصفحة تأتي الصفحة الأخرى الخيالية والطوبائية . فقد فتحت الثورة الفرنسية الباب لاتجاه آخر دأبنا على ملاقاته في عالم الفن والأدب ، ألا وهو الاتجاه الرومانطيقي . ولكن الرومانطيقية لم تكن مجرد أغان من الحرية أو صور لقلاع مهدمة . انها فلسفة في الحياة تسربت في عالم الدين والاخلاق . وساهمت النظرة إلى الوراء من ناحية والتطلع إلى الانسان الأكمل والأنقى من ناحية أخرى في إضفاء هذه المسحة على الايديولوجية العنصرية . ونحن نلتقي بالانطلاقات الشاعرية في أكثر الأدبيات العنصرية والصهيونية، وكان تشمبرلين قد التفت إلى هذه الظاهرة في نظرياته فاعترف قائلاً ان لا غنى للعلم من الشعر . ولا شك ان الصور التي رسمها أدباء القومية اليهودية عن الأرض المقدسة وحنين اليهود إليها هي أمثلة ناصعة للنزوع الرومانطيقي بشكله العلمي والنمطي .

وكان من نتائج هذه النزعة ، التعلق بالابطال الذين افرد لهم توماس كارلايل كتاباً خاصاً « الابطال وعبادة الابطال » واعطت موسيقى فاغزر ألواناً منه . وحام هذا الغرام في المانيا بشخصية بسمارك وفي فرنسا بشخصية نابليون . وقد ساهم ثيودور هرتزل في الاتجاه الالمانى بالتعبير في أكثر من مناسبة عن توله بالزعيم الالمانى من طرف وبشخصية ذاته من طرف آخر إلى حد كشف بوضوح عن ابتلائه بجنون العظمة (ميغالومنيا) . وقد روى في مذكراته عن أحلامه بالتمثيل الرائعة التي ستقام له واليوم الموعود الذي سيزحف فيه قائداً الجموع اليهودية من ورائه إلى الوطن القومي . وفي موقف آخر حلم بالمثل بين يدي البابا ليعلن أمامه دخول اليهود في الدين المسيحي^(٦) . وفي حلم آخر من أضغاث أحلامه تصور نفسه الزعيم المنتصر واقفاً بين تشكيلات من الفيالق العسكرية وبطاريات المدفعية ومضى ليصف بكل تفصيل أزياء الجند الذين سيحيطون به في الاستعراضات المهمة^(٧) .

وجاء تأليه الصهاينة لشخصية هرتزل العصابية مثلاً آخر لما نقول . ومن المهم الالتفات إلى هذه الظاهرة في تعلق المجموعات العنصرية بالشخصيات الشاذة والجانحة نحو العلل العصابية والذهنية ، بل وابتلائها بهذه العلل إلى حد الجنون ، كما وجدنا في تأليه العنصرية الالمانية لهتلر . ولا تعكس هذه الظاهرة مسألة التعلق بالابطال فقط ، وإنما تعكس أيضاً ميل العنصرية نحو اللا عقلانية كما سنجد بعد قليل .

التاريخ بالنسبة للعنصرين سجل كتب فصوله أبطال التاريخ وزعماء الأمم الذين وقفوا كالعمالقة يقودون أقزام الجماهير ويمثلون عليها مصيرها ، أو كما قال اللورد سيف ، الرائد والممول الصهيوني ، في تأبينه لحليم وايزمان

(٦) انظر يوميات هرتزل ، ج ١ ، ص ٧ ، ص ٤٠ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٧١ .

« مادة التاريخ الحقيقية هي دراما الحياة كما تتمثل في أعمال عظماء الرجال في الفترات الحاسمة من مصير الأمم » (٨) .

وقد زدنا بن غوريون بنموذج أكثر تفصيلاً لهذا التقييم الفردي للتاريخ كموضوع يتوقف على الافراد والبطولات في حديثه عن حملة سيناء والرئيس جمال عبد الناصر :

« كان من أهداف حملة سيناء الخط من مكانة دكتاتور مصر . ويجب الا انتهاون في أهمية هذا الهدف . انني كمسؤول عن أمن الدولة منذ تأسيسها ، ظل ذلك الشخص يثير قلقاً مستمراً في قلبي . اننا على علم بانحطاط الزعماء العرب وتفسخهم مما نعتبره من العوامل الرئيسية في ضعفهم العسكري . ولكنني كنت دائماً أتوجس خوفاً من ظهور رجل من نوعية ممتازة كالذي ظهر بين القبائل العربية في القرن الثامن أو كمصطفى كمال في تركيا بعد هزيمة الحرب العظمى فيرفع روحية الشعب ويقوي ثقته بنفسه ويحوله إلى شعب مقاتل . ما زال هذا الخطر جاثماً . وقد لاح لي بان ذلك الرجل ربما كان عبد الناصر . ان حمل الأطفال لصورته في البلدان الناطقة بالعربية ليس بالأمر الهين . لقد كان تهشيم مكانة ناصر انجازاً سياسياً عظيماً . لقد انحطت منزلته في بلاده وفي الدول العربية والعالم الاسلامي والعالم أجمع . وحتى الاتحاد السوفيتي الذي يحب عبد الناصر كزعيم للشعوب العربية لم يتجاهل دروس حرب سيناء رغم عدم الافصاح عن ذلك . انني اعرف ان رجال الكرملين هم أناس واقعيون ولا يفوتهم إدراك ان بطلهم هذا مجرد دمية . » (٩) .

ولم يكن هذ الكلام مجرد رأي خاص لبن غوريون بل وجدنا أصداء له في شتى أبواق الصحافة الاسرائيلية فيما بعد . « الهدف : إزالة ناصر » ، كان عنوان مقالة في ידיעות احرونوت ، و « ضد ناصر : نحو مجهود منظم

(٨) جويش كرونكل ، ١٤ / ١٠ / ١٩٦٦ .

(٩) بن غوريون ، ماذا حاربنا من أجله؟ ، مارت ١٩٥٧ ، ص ٤ .

للاطاحة بالزعيم المصري » ، كان عنوان مقالة في هاآرتس ، و « الهدف لعمليات القوات الاسرائيلية : تقويض الايمان بناصر » ، كان موضوع مقالة أخرى في هاآرتس أيضاً (١٠) .

ويقابل ذلك على الطرف الآخر ، الاعتزاز الرهيب مثلاً بشخصية موسى ديان الذي أصبح شخصية أسطورية بين الأوساط الاسرائيلية وتلاه بعد ذلك الجنرال اريال شارون بعد حرب ١٩٧٣ . وقد افردت مجلة مدل ايست انترناشنال دراسة خاصة لظاهرة « عبادة المحارب » و « عبادة الابطال » التي أخذت تطفئ في إسرائيل . الحياة أصبحت رهناً بقدرات واردة أفراد ولا تتوقف على العوامل الاقتصادية أو الظروف التاريخية .

وربما يجدر بنا ان نتوقف عند الظاهرة الأخرى التي لازمت العنصرية وان لم تقتصر عليها فقط ، وهي ظاهرة المثالية . فمن الواضح ان العنصرين قد نحتوا لأنفسهم مثلاً قد لا تتفق معها ولكنها رغم ذلك بالنسبة لهم تمثل مستويات أعلى في سلم المجتمع الانساني . وقد استوحوا مرة أخرى مثل هذا الاتجاه من الداروينية وفكرة الانسان الأرقى . وغص التنظيم السياسي والفكري لهم بنماذج مختلفة من المثل والأمانى . ومن الملاحظ في معظم الحركات العنصرية تطلعات أصحابها إلى أجماد قومية عظيمة تقف شعوبهم على أبوابها . ومن أحسن الأمثلة على ذلك فكرة « النظام الجديد » للحزب النازي . وإذا كان الايمان بالمثل والأفكار والسعي إلى تحقيقها قد أدى في كثير من الحالات إلى الفتوحات الهائلة في مسيرة الانسان وتقدمه ، فانها قد أدت في حالات أخرى إلى أبشع المآسي والجرائم . كل شيء يتوقف هنا على صلاح أو طلاح الفكرة التي يتأهب صاحبها إلى التضحية بكل شيء من أجل تطبيقها . وهكذا أصاب موريس كوهين كبذ الحقيقة بقوله ان المثاليين الصهاينة كانوا كالمثاليين الالمان مستعدين تمام الاستعداد لتجاهل حقوق

(١٠) يديعوت احرونوت ٢٣ / ١ / ١٩٧٠ . هاآرتس ٢٣ / ١ / ١٩٧٠ ، ٤ / ٥ / ١٩٧٠ ، ٢ / ٥ / ١٩٧٠ .

السكان غير اليهود في فلسطين إيماناً منهم بتفوق حضارتهم (١١) .

وتقبل منظرو الصهيونية الثمن الباهظ الذي ينبغي دفعه من أجل أحلامهم . « ان من يتصور ان التغير الجذري لحياة اليهود عن طريق حصولهم على وطن خاص بهم يمكن ان يتم بدون صراع مرير وبدون قسوة وظلم وشقاء يلحق بالبريء والمذنب معاً هم أناس طوباويون » (١٢) .

وقد تأثر الصهاينة هنا أيضاً بأفكار مختلفة من الديانة اليهودية التي تميزت عن سواها من ديانات العالم القديم بتوسع مداها وشمولها وبتطلعها إلى مستقبل أزهي ومجىء المسيح المنقذ وغير ذلك مما أعطى الجانب الروحي الأسمى من اليهودية فكرة تخلص العالم كرسالة ملقاة على عاتق اليهود . وطالما أشار منظرو الصهيونية إلى مثل هذه التبعات والامكانيات المرتبطة بتأسيس الوطن القومي اليهودي . وهكذا كتب موسى هس في رسائله في « روما وأورشليم » فقال : « لقد حافظ هذا الشعب على قوميته بشكل ديانة واتحاد بدون انفصام بذكريات أرض الأجداد إيماناً منه برسالته التاريخية في توحيد بني الانسان كافة باسم الخالق الأبدي » . وذهب مارتن بوبر نفس المذهب بزعمه ان خلاص العالم لن يتم بدون خلاص بني إسرائيل وإن إسرائيل لن تحقق خلاصها بدون اتحادها بأرضها المقدسة (١٣) .

وتحدث وايزمان بنفس اللهجة العنصرية المتعالية فقال « إن بإمكاننا ان ننجز مهمة من مهمات المدنية لا يستطيع أي شعب آخر أن ينجزها » . وما لا بد من الاعتراف به أيضاً ان عدداً من رواد الحركة الصهيونية ، وعلى رأسهم احاد هاعام ، قد توهموا فعلاً بان المستوطنين اليهود سيقومون برفع مستوى المواطنين العرب وتوعية وتنمية الشرق الأوسط برمته . ومن هنا جاء

(١١) M. Cohen ، الصهيونية : قبلية أم لبرالية ، نيويورك ، ١٩٤٦ ، ص ٨ .

(١٢) بروخوف ، ص ٢٠٣ .

(١٣) بوبر ، ص ٨١ .

تفسيره على المستوى العقلاني (١٥) . ومن خيرة الأمثلة على ذلك ما كتبه غولدا مثير في الاعراب عن إعجابها بنخمان سركين ، الصهيوني العمالي في المناظرة التي عقدها مع ناقد من نقاد الصهيونية :

« حسناً ، دعنا نعقد اتفاقاً نقسم بموجبه كل شيء إلى قسمين . خذ أنت كل شيء موجود بالفعل وأنا آخذ كل شيء ليس في الوجود بعد . مثلاً ، إسرائيل كدولة يهودية غير موجودة ، إنها حصتي . الشتات اليهودي موجود ، خذه أنت . اللغة الشلختية موجودة ، خذها لك . اللغة العبرية لا يتحدث بها الناس في حياتهم اليومية ، إنها من حصتي . كل ما هو واقع وحقيقي ولملموس ، هو من نصيبك . وكل ما تعتبره أنت مجرد أحلام فليكن من نصيبي . » (١٦) .

وبنفس الاتجاه تحدث بن بورات في الندوة الفكرية « الصهيونية : حركة أخلاقية أو عنفية » المنعقدة في ١٩٧٢ ، قائلاً « لقد كانت الصهيونية منذ بدايتها حركة رومانطيقية غير واقعية . فلو كانت تقوم على الواقعية لما كان بإمكانها ان تحقق أي شيء . لقد انجزت مهمتها فقط لأن الحالمين بأحلامها كانوا مجموعة من المجانين الذين أغمضوا أعينهم عن الواقع » . (١٧) .

وتعطينا أفكار هرتزل أمثلة جيدة لهذا الاتجاه اللاعقلاني والنظرة الاستهزائية بالوقائع الاجتماعية والجماهيرية . فإذا كان هتلر قد كتب في « كفاحي » قائلاً « ان المرء لا يضحي بحياته من أجل أعمال تجارية ولكنه يضحي بها من أجل المثل » ، فان هرتزل قد كتب في رسالة له إلى البارون دي هرش « الناس إنما يضحون بحياتهم من أجل راية . . . هل تعلم كيف بنيت الامبراطورية الالمانية ؟ لقد ولدت من البهرجات والأناشيد والخيالات

(١٥) ارثر كويسلر ، القبيلة الثالثة عشرة ، لندن ، ١٩٧٦ .

(١٦) غولدا مثير ، حياتي ، لندن ، ١٩٧٥ ، ص ٣٨ .

(١٧) صوت الصهيونية ، منشورات مدل ايست انترناشنال ، عدد ٤ .

ارتداد البعض وتحويلهم إلى معارضة المنظمة الصهيونية بعد انكشاف حقيقة التطورات الجارية في فلسطين والمعاملة التي تلقاها العرب من الوكالة اليهودية .

ومهما كان رأينا في نظرة الصهاينة نحو المشرق العربي والانسانية عموماً ، فلا يمكننا ان ننكر بأن اليهود الذين تركوا أوروبا وراءهم وجاؤوا ليتحملوا الأخطار والمصاعب الجسيمة في فلسطين والهلاك بالملايا والأوبئة المحلية وتحمل جور الحاكم العثماني لم يكن ليفعلوا ذلك بدون السند المعنوي المتأتي من إيمانهم برسالة جلييلة ، خطأ كان ذلك أو صواباً .

ومن النتائج الحتمية لهذه المثالية والرومانطيقية وعبادة الأبطال ورفض العوالم الموضوعية والعجز عن التكيف مع الواقع ، الانغمار باللاعقلانية . وقد أصر النازيون ، كما لاحظ مكوفرن ، على رفض العامل الاقتصادي كأساس للتطورات الاجتماعية وآمنوا بأن الناس لا يتحركون بعقولهم وإنما بعواطفهم وميوهم ومثلهم الخاضعة لتأثير الدعاية والاعلانات والاعلام . أما العلم والمعرفة فشيئان يتوقفان على العرق ويتحددان بالحدود القومية ، فليس هناك حقيقة عالمية يجمع البشر على قبولها على نطاق عالمي وبنفس الدرجة . ومثل ذلك يقال عن القواعد الاخلاقية فهي معايير نسبية موضوعة لخدمة أصحابها^(١٤) . ومرة أخرى نجد هذه الظاهرة تميز معظم الفكر العنصري وتصل في تطرفها حد الاعتماد على المنجمين في التخطيط السياسي والعسكري كما حصل لأدولف هتلر . ومن الشائع بين العنصريين الاعتزاز بتحدي الواقع وإنجاز المعجزات والاستخفاف بالآراء المقبولة إجماعاً أو السائدة بين ذوي الرأي .

ومن الكلمات التي شاع استعمالها في وصف الصهيونية وزعمائها الأحلام والمغامرة واللاواقعية والجنون . وكان حليم وايزمان قد اعترف بأن تعلق اليهود بفلسطين شيء نفساني ، أو كما قال كويسلر شيء لا يمكن

(١٤) مكوفرن ، ص ٦٢٧ - ٦٣٠ .

والشرائط الذهبية والحمراء والسوداء . . . » (١٨) .

وكان المعروف عن هرتزل اهتمامه المفرط في مظهره وهندامه وكل الشكليات التي تتعلق بنشاطه . ويمكن القول ان ثيودور هرتزل يقدم تجسيمياً مبسطاً لهذه الجوانب الفكرية والعاطفية من التفكير العنصري الاوربي وانعكس كل ذلك في المواقف والأساليب السياسية مما سنعالجه توطاً .

(١٨) يوميات هرتزل ، لندن ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢ .

الفصل السادس

نيتشه وترتشكه

بالرغم من ارتباط اسمي نيتشه وترتشكه بالفكر العنصري ، فإن احداً لم يعط هذا الموضوع اهتماماً خاصاً أو يساهم فيه مساهمة مباشرة . ولكن الألوان السياسية التي أعطاها كل منهما للتاريخ والحياة اجتذبت أصحاب التمييز العنصري فاصطبغوا بها وعززوها بدورهم بتطبيقاتهم وتفسيراتهم . وينطبق هذا بصورة خاصة على نيتشه الذي مر بأدوار مختلفة وأحيطت فلسفته بكثير من الغموض والاضطراب الذي عكس - كما يرى البعض - اضطرابه الفعلي الخاص الذي أودى به في الأخير إلى الجنون المطبق ومستشفى الأمراض العقلية نتيجة إصابة جهازه العصبي بالسفلس في أول شبابه . وزاد في الاضطراب ان اخته اليزابث استحوذت على مخطوطاته وكتاباتة بعد اعتلال صحته وسمحت لنفسها بتسخير ما كتبه لمآربها وأهوائها الخاصة ، فحجبت بعضاً من أفكاره وحرّفت بعضاً آخر . وعمد النازيون فيما بعد إلى المبالغة في تحوير كل ذلك في خدمة الاشتراكية الوطنية وأصبح هذا الجانب من الشؤون التي ما زالت تشغل بال المؤرخين والمفكرين .

وقد سار الاتجاه بعد الحرب العالمية الثانية إلى إعادة تقييم نيتشه وغسل تراثه من أوساخ النازية . ونلمس هذه التحولات بمقارنة ما كتب عنه في الموسوعتين الأمريكية والبريطانية فيما بعد الحرب (طبعة ١٩٧٦) وما كتبه الموسوعة البريطانية بين الحربين (طبعة ١٩٢٩) وقبل الحرب العظمى (طبعة ١٩١١) . ومن التحولات التي تلفت النظر بوضوح ابتعاد الموسوعة البريطانية في ١٩٧٦ من استعمال كلمة Superman التي استعملتها في طبعة ١٩٢٩ واستبدالها بكلمة Overman تجنباً للرنين العنصري الذي أصبح يلزم الكلمة الأولى .

قد لا يؤدي مجرد التأثير بنيتشه إلى الوقوع في العنصرية ولكن العنصرين لم يجدوا مهرباً من الاعتماد على فلسفته . لقد تأثر نيتشه أولاً بشوبنهاور ولكنه افترق عن سبيله عندما رفض الاستنتاجات التشاؤمية لسلفه واستبدالها بالايان في قدرة الانسان على التفوق والتسامي . وارتكز الهيكل الفلسفي لأرائه عن فكرة « إرادة القوة » التي عبر عنها بالارادة على التغلب والانتصار . ولا شك ان النازيين فسروا ذلك بالمعنى العسكري والتوسعي الذي أرادوه . بيد ان نيتشه قصد به أكثر من ذلك . لقد تضمنت إرادة القوة التغلب على البيئة والمحيط الطبيعي وعلى رذائل النفس وعيوبها ونقاط ضعفها والسمو بها إلى المستويات العليا من القوة والرجولة والسيطرة وكل ما هو جيد وصحيح وجميل ، كما كان يقول . ومن هنا جاء تأثيره على فرويد ومدرسة التحليل النفسي من حيث فكرة التسامي أو التصعيد . وانطوى هذا السعي إلى الكمال والانتصار على فرض الواجب على الانسان . والتقى هذا الشعور بالمسؤولية والاضطلاع بالواجب بالاتجاه الدولي الذي تعرضنا له في الفصول السابقة .

ما هو الموقف من الاخلاق ؟ ليس هناك معيار ثابت ومحدد للأخلاق . انها أمر نسبي يتوقف على المكان والزمان ، وعلى ما هو أهم من ذلك ، على صاحب الأخلاق . فللسادة أخلاقيتهم الخاصة بهم ، أخلاقية السيد السائد . وللعبيد أخلاقيتهم الخاصة ، أخلاقية العبد . أما الحقيقة

فهي ما يراه كل انسان ، سيد أو عبد ، مفيداً له ومتطابقاً مع مصالحه في العالم الخارجي . الشيء الحقيقي الوحيد هو إرادة القوة . وفي تعليق له على ما نسميه بفضائل الخير والرحمة قال ان الحرب والشجاعة حقتنا من الانجازات ما يفوق ما حققته الصدقة .

« الصراع هو سيد كل شيء » . ومن الضروري تنمية كل موهبة طبيعية في الانسان بواسطة الصراع - وهو الشعار الذي تبناه فيما بعد روزنبرغ ، فيلسوف الاشتراكية الوطنية . ونظر نيتشه باحتقار ، كما فعل العنصريون ، إلى فكرة المساواة سواء بين الرجل والمرأة (التي أعطاها مجالاً من إرادة القوة بالمحافظة على مكانتها التقليدية وعدم مجارة الرجل) أو بين فئات المجتمع . وعلى هذا الأساس هاجم الاصلاحات الاجتماعية التي شرعها بسمارك . ورغم تأكيده على تغلب الانسان على المحيط فانه كره الصناعة والتقدم الصناعي .

أما المساواة بين الاعراق المختلفة فهو شيء مرفوض كلياً فليس هناك غير عرق سائد وعرق مسود . و « العرق السائد يجب ان يكون في القمة وإلا بمصيره الدمار »^(١) . ان للسادة اخلاقيتهم الخاصة بهم والتي يتعين عليها ان تعزز نفسها وتسعى لتقوية تفوقها على أخلاقية الرعايا وتحسين نسلها حتى يتم تحقق الرجل الأرقى . وعلى السادة ألا يحملوا أي رحمة تجاه المحرومين والفاقرين لحقوقهم والمحكوم عليهم بالانقراض^(٢) .

وقد رأى نيتشه ان القيم الاخلاقية للسادة متجسمة في القرآن والاجزاء الأولى من العهد القديم . فهناك تبرز قيم الطبقة السائدة بكل ما تتصف به من إيجابية وثقة ذاتية . وكل ذلك بعكس ما جاءت به المسيحية ، دين المرأة وكل ما اتصل بها من عطف ورياء^(٣) . لقد كانت قيم اليهود القدماء قيماً تقوم على إرادة القوة ولكنهم تدهوروا وانحطوا فيما بعد فتحول

(١) نيتشه ، إرادة القوة ، لندن ، ١٩٦٨ ، ص ٩٣ .

(٢) مكوفرن ، ص ٦٢٧ - ٦٣٢ .

(٣) نيتشه ، ص ٩٣ .

إيمانهم إلى دين روجي يقوم على المذلة والسلم والحذر والفتنة حتى انتهوا في الأخير إلى الخروج بشخصية المسيح بكل ما أدت إليه من ليونة وميوعة وقيم كاذبة رذيلية . ورأى نيتشه « ان اليهود انجزوا معجزة قلب القيم رأساً على عقب »^(٤). وبوقوع العالم تحت تأثيراتهم خضعت البشرية لذهنية العبد ، الذهنية السامية .

وفي مناسبات مختلفة اعرب نيتشه عن أمله في أن يصبح اليهود صفوة البشر . وكان يرى على ما يظهر ان سبيلهم نحو هذه المكانة يكمن في عودتهم إلى فلسطين واستئناف قيمهم القديمة . ولا شك ان جميع هذه الأفكار ، باستثناء ما تعلق منها بارتقاء اليهود القدماء ، قد خدمت الحركة النازية . ولا بد لنا الآن ان نلتفت لنرى كيف تفاعلت مع الحركة الصهيونية .

لقد تغلغلت الفلسفة النيتشوية في ذهنية القيادة الصهيونية وتجلى ذلك على الأخص في ثيودور هرتزل ، رغم نفيه للتهمة ، وأحاد هاغام وماكس نور دو . وقد أعرب حليم وايزمان في مناسبات مختلفة عن اهتمامه بالنيتشوية وكتب في إحدى رسائله في عام ١٩٠٢ « عزيزي فيرولا . . . أبعث إليك بنسخة من نيتشه . عودي نفسك على قراءته واستيعابه . هذا أحسن وأبدع ما يمكن لي أن أرسله لك . »^(٥) ووقع جمهور غفير من الشباب اليهودي في سحر النيتشوية فنادوا برفض التعاليم الدينية التي كان يتفوه بها الحاخامون في ذلك العهد والانتقاض على أسلوب الاستسلام والخنوع والتقية وطالبوا ببعث الحياة البطولية القديمة التي حركت السلف العبري في عهود ما قبل التلمود .

وفي عام ١٨٩٨ ، نشر احاد هاغام « انقلاب القيم » لاعادة صياغة الفكرة النيتشوية الأساسية المعروفة بانقلاب القيم Umwertung aller Werte وإعطائها قالباً يهودياً . بدأ احاد هاغام بحثه بالاشارة إلى الصوت

(٤) بولياكوف ، ص ٣٠ .

(٥) رسائل وأوراق حليم وايزمان ، لندن ، ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ٨٥ و ٣٤٤ .

اليهودي الثائر الذي أخذ يرتفع بغضب ويفرض نفسه على الطائفة اليهودية الموجودة . وبعد استعراض وجيز لآراء نيتشه قرر ان قبول اليهود لها أمر صحيح ولكنه يتطلب بعض التحوير والاقتراس . « ليس لدي ما أنتقصه في هؤلاء الناس حتى الآن . طالما حدث نفس الشيء من قبل اعتباراً من الفترة الاسكندرانية إلى يومنا هذا . وقد اغتنت اليهودية أكثر من مرة بالمفاهيم الجديدة والأفكار الخلاقة . بيد ان من الضروري للفنان هنا كما في أي موقف آخر يتطلب مهارة فنية ، أن يعي إمكانيات مادته ويفهم كيفية إخضاعها للشكل الذي تأخذه » .

ثم مضى المفكر الروحي الصهيوني إلى بيان كيفية فهم مادة النيتشوية واستخدامها في خدمة الشكل اليهودي فبادر إلى تحليل النظرية قائلاً انها تتألف من شطرين ، أولهما هو الكائن البشري والثاني هو الكائن الآري . ولما كان نيتشه ألمانياً فقد رأى الرجل الأرقى بصفات آرية . وهكذا ولد « الوحش الأشقر » Die Blonde Bestie ، الرجل القوي الجميل الذي سيسيطر على العالم . بيد انه لو كان نيتشه يهودياً لاختار لبطله صفات يهودية وزوده ببعد أخلاقي . لا حاجة هناك إلى خلق نيتشوية يهودية لأن هذه النيتشوية موجودة عند اليهود منذ قرون .

« بيد ان على اتباع نيتشه اليهود ان يعلموا ان اليهودية لم تقم على الرحمة فقط ، ولم تجعل قط الرجل الأرقى خاضعاً لجمهور الناس ، كما لو كان غرض وجوده الكامل وهدفه مجرد زيادة سعادة دهماء الناس » .

هذا الرجل الأرقى هو الرجل المعروف في التقاليد اليهودية بالصاديق (الرجل الصالح Zaddik) وهو النهاية بذاته ومن أجله خلق العالم برمته . وواصل احاد هاعام كلامه فذكر القارئ بأن نيتشه اعتبر ان الشرط الاساسي لظهور الرجل الأرقى هو الوصول الى الشعب الأرقى .

« وتفتح هذه الفكرة مجالاً واسعاً تظهر فيه اليهودية بلون جديد ورائع . في ضوء هذه الفكرة يصبح كثير من العيوب التي يدنينا بها الغرباء

ويحاول مفكرون نفيها أو تبريرها صفات من الصفات الإيجابية للارتقاء Superiority » .

وشدد احاد هاعام على قول نيتشه بأن من الممكن في ظروف معينة أن ترتقي عوائل أو قبائل بكاملها إلى مستوى الانسان الأرقى . ولم يحاول اليهود زيادة عددهم « لسبب بسيط هو ان من صفات الجنس الارقي ان يرفض الهبوط بقيمه الخاصة لجعلها مقبولة بين جميع البشر . ليس من شأن الجنس الأرقى أن يلقي بمسؤولياته على الآخرين أو يشاركهم بها » . ثم تعرض الرائد الصهيوني إلى مسألة رسالة بني اسرائيل فقال : « يكفي أن نبين ان أبناء الشعب اليهودي ككل قد فسروا دائماً رسالتهم بكونها ببساطة اداء المهمات الملقاة على عاتقهم بدون الالتفات إلى العالم الخارجي » .

لم تتكلم التوراة عن خروج اليهود إلى العالم لتعليم العالم سبل الرب وإنما اقتضى على العالم أن يأتي إلى جبل صهيون ليتلقى ذلك من اليهود . ولكن مشكلة اليهود هي انهم لم يقدرُوا صفة الارتقاء الملتصقة بهم حق قدرها .

وأمعن احاد هاعام في اعطاء اليهود المنظور الذي خططه لهم نيتشه فقال ان القوة الخلقية لليهود كانت موجودة في نشأتهم الأولى قبل ظهور الكتاب المقدس وكانت جزءاً من قوتهم الطبيعية . ثم جاء الكتاب المقدس ليشوه تلك القوة متأثراً بدوافع طارئة . ومن الاختلافات البيئة التي يلاحظها الباحث في كتابات نيتشه واحاد هاعام انه حيثما يتكلم الأول عن اللياقة الطبيعية الفيزيقية يتكلم الثاني عن اللياقة الخلقية . ويعتبر احاد هاعام هذه اللياقة الخلقية صفة اختير لها اليهود (٦) .

وبعين الوقت حذر احاد هاعام من مغبة الاتجاهات التي جاءت بها الثورة الفرنسية . ورأى كما ارتأى نيتشه من قبل ، ان رجوع اليهود إلى فلسطين هو السبيل الصحيح لاستعادة اليهود قوتهم الطبيعية الأصيلة . انهم

(٦) Transvaluation of Values في M . Selzer ، إعادة النظر في الصهيونية ،

لندن ، ١٩٧٠ .

بحاجة إلى « أرض استجمام راسخة كما يستطيعون الحصول على فرصة أخرى لتنمية عبقريتهم . . . والاضطلاع برسالتها بصفة الشعب الأرقى »^(٧) .

وأكد احاد هاعام في مكان آخر على تفاضل الأمم وأهمية هذا التفاضل في تقدم البشر . « يجب أن يكون هناك شعب واحد يتمتع بمميزات أصيلة فيه تجعله أكثر صلاحاً من غيره في تطوره الأخلاقي ويتبع أسلوباً في الحياة يخضع لقانون أخلاقي أرقى من الأخلاقية الشائعة مما يعطي ذلك الشعب المستلزمات المثالية للوصول إلى الانسان الأرقى الذي نريده »^(٨) .

ومن الضروري ان يلتفت القارئ الى الطبيعية والنظرة الوراثية الى إنسان فجر التاريخ والمثالية الرومانطيقية في كل هذه السطور . لقد لاحت فكرة إقامة كيان صهيوني في فلسطين في عين احاد هاعام بمثابة بناء هيكل من الحكمة والسمو والارتقاء تقصده الشعوب من مشارق الأرض ومغاربها لتنهل من معينه . وقد حدثت هذه الأفكار الكاتب الصهيوني الآخر ، ماكس نوردو إلى السخرية من أحلام المفكر الروحي واتهامه بمحاولة خلق كيان فريد من نوعه « في وسط بربرية آسيا المعادية للحضارة »^(٩) .

ولكن ماكس نوردو نفسه ، الصديق الحميم لثيودور هرتزل وزعيم الحركة الصهيونية بعد وفاته ، وقع بدوره في أسر النيتشوية كذلك . وقد نشر نوردو معتقداته التي قامت بصورة مباشرة على آراء العنصريين بوجه عام في كتابه « الانحطاط » Degeneration الذي نشره في عام ١٨٩٦ . وقد كرس نوردو كتابه إلى زميله العنصري الآخر ، لومبروزو . وادعى بأنه يكمل نظريات زميله في علم الاجرام بتطبيق ذلك على الفنانين والأدباء المعاصرين الذين يقابلون في الحقل الفني المجرمين والسارقين والقتلة .

(٧) N . Bentwich ، احاد هاعام وفلسفته ، القدس ، ١٩٢٧ ، ص ١٣ .

(٨) احاد هاعام ، مقالات ورسائل ومذكرات ، لندن ، ١٩٤٦ ، ص ٧٦ - ٨٢ .

(٩) رسائل وايزمان ، ص ٢٧٠ .

أعطى نوردو نفس النحيب المتشائم الذي أعطاه العنصريون تجاه التقدم الصناعي والعلمي والفني واعتبر معظم الانجازات التي جرت في هذه الميادين صوراً من الانحطاط والانحراف المرضي من « النمط الأصيل » .

« إننا نلاحظ في التطور الذهني للمنحطين نفس الاضطراب الذي نجده في غموض الجسماني . انعدام التناظر في الوجه والجمجمة له ما يقابله في المدارك العقلية . وتتضاءل بعض هذه المدارك إلى حد كامل في حين تبلغ مدارك أخرى في غموض المرضي » .

وبعد حملة شعواء على الواقعية والكتاب الواقعيين والاجتماعيين مثل ابسن واميل زولا وتولستوي وبلزاك وهوبتمان ، انتقل ليشن نفس الحملة على الرسامين الانطباعيين متهماً إياهم جميعاً بالجنون والهستيريا . ويمضي ليؤكد على اختلال قواهم العقلية بالاشارة إلى بؤبؤ أعينهم ومحارها . ومن خواص هذا الاختلال جنوح أصحابه إلى السلمية واللاعنف (١٠) .

ورأى نوردو أن أوروبا أصبحت تعاني بشكل خاص من هذه العلل وانها مصابة بالتعب والشيخوخة . . . وأدى كل ذلك إلى ظهور الحركات الاشتراكية والتحررية مما يعتبره جميعاً مجرد أعراض مرضية . ولكن نوردو يستثني من ذلك العرق الانكلوسكسوني الذي يعتبره « سليماً بطبيعته وقوي الارادة » (١١) وحمل بصورة خاصة على ابسن وتولستوي للمكانة التي أعطوها في أدبهم للمرأة وتحررها . فمن المظاهر المرضية للعصر الحديث الاهتمام بالمرأة ، المخلوق الذي يلعب دوراً كبيراً في تفكير الرجل المنحط وعلى عكس ما يحصل بالنسبة للرجل الكامل القوي العقلية . « ان العلاقة الفزيولوجية بين الرجل والمرأة تقوم على رغبة الرجل بها لأن من الوقت ثم انصرافه عنها حالما تنتفي تلك الرغبة » . ورأى نوردو ان مكان

(١٠) M . Nordau ، الانحطاط ، لندن ، ١٨٩٦ ، ص ١٨ و ٢٧ .

(١١) نفس المصدر ، ص ٤٣ ، ٧٥ .

المرأة في المستقبل سيكون مع الأطفال والشبيبة وتتوجه إلى الفن والأدب بينما ينصرف الرجل إلى العلوم والفكر (١٢) .

ومن نقاط انتقاده لهريخ ابسن ، ابي المسرح الواقعي الحديث ، مهاجمة الكاتب الترويجي لفكرة الوراثة وما يجنه الآباء بحق الأبناء . انتقد نوردو هذه النظرة السلبية تجاه الوراثة التي اعتبرها عنصراً إيجابياً في حياة البشر واتهم ابسن بالفوضوية وجنون الذات . وحمل على قصص اميل زولا واعتبرها كريهة وسايكوباثية ووصف الواقعية بأنها كلمة فارغة واتجاه « ينبع من نظريات جمالية مضطربة وتتميز بالتشاؤم والميل الجارف نحو الأفكار الفضة والتعابير السوقية المشوشة . » (١٣). وأكد الكاتب على أن الأشكال الشعرية لم تتغير منذ ثلاثة آلاف سنة (أي منذ ظهور التراث اليهودي) .

وحري بنا ان نتذكر هنا ما سبق وقلناه في ان العنصرية هي لون من ألوان العجز عن التكيف مع الواقع ولكن نوردو يعكس الآية فيقول في استنتاجاته « إذن فعلى المنحطين ان يستسلموا . انهم لا يستطيعون التكيف مع ظروف الطبيعة والمدنية ولا هم بقادرين على البقاء بأنفسهم في هذا النزاع من أجل البقاء ضد الأصحاء . . . انهم يصبحون في الأخير هستيريين وعصابيين وينجبون أولاداً منحطين وبهؤلاء الأولاد سينقرض عرقهم في الأخير . » (١٤) .

ولا شك في ان أفكاره عن الفن الحديث توحى وكأنها كانت قد كتبت خصيصاً كمقدمة لبرنامج هتلر ضد الفنون الحديثة . كما أن إشارات إلى النسل وانقراض النسل بنتيجة الانحطاط هي سبق آخر للسياسة النازية بشأن الصحة العرقية والسيطرة على النسل . وقد تعرض جورج برنارد شولما كتبه نوردو فوصفه بأنه « أحد اليهود العالمين البارزين الذين انطلقوا في

(١٢) نفس المصدر ، ص ١٦٨ ، ٥٤٣ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٥٣١ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ٥٤١ .

هجوم على المدنية الحديثة كما انطلق داود ضد الفلسطينيين . » (١٥) .

على عكس نيتشه الذي عني بصورة أولية بالجوانب الفلسفية من الحياة والمجتمع ، نجد هنريخ فون ترتشكه ، المؤرخ الألماني الكبير الذي كرس اهتمامه للقومية الألمانية والتطبيقات السياسية العملية ونشر تعاليمه في عدد من الكتب أهمها « تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر » ومجموعة محاضراته بعنوان « السياسة » ، وهي الكتب التي أصبحت دليلاً عملياً للحزب النازي . وقد تأثر ترتشكه أولاً بأفكار فخته من حيث حكم النخبة العارفة وضرورة تعدد الشعوب وتقدم الانسان عن طريق تقدم كل منها بصورة منفصلة ورفض التنظيم الديمقراطي للأمة مؤمناً بأن « التاريخ من صنع الرجال » وإرادتهم أهم من تفكيرهم . كما أظهر ترتشكه بنفس الوقت الخطوط الأساسية للنيتشوية من حيث إرادة القوة . وقد نادى ترتشكه بإحلال الواجب الوطني محل الدين . فالدولة هي أهم شيء وأهم شيء في الدولة هو إرادة القوة . وألمانيا هي الدولة التي تعتبر الوريث الشرعي لأوروبا القرون الوسطى . وكانت هذه نقطة مهمة في تفكيره وذلك لأن « الهبة الخاصة بالدولة تعتمد على ارتباط شعبها المستمر بالأجيال الغابرة . . . فالوطنية الصادقة هي الاحساس بالجذور الممتدة بعيداً في منجزات التلد . » (١٦) .

أما جوهر الدولة فهو القوة ولهذا فالاتفاقيات التي تعقدها هي مجرد ترتيبات مؤقتة مفيدة . « فالدولة لا تستطيع ربط إرادتها على مدى المستقبل بدولة أخرى . فليس هناك قاض أعلى من الدولة نفسها وعليه فهي تعقد جميع اتفاقياتها وفق هذا الشرط المستتر . » والقانون الدولي لغو متناقض وأحسن ما فيه تلك الأقسام التي تتعلق بالحرب وقواعدها .

(١٥) برناردشو ، محامي الشيطان ، عقلانية الفن ، لندن ١٩٠٨ ، ص ٤ .

(١٦) مكوفرن ، ص ٣٦٤ .

« أما الوظيفة الثانية للدولة فهي شن الحروب . . . وبدون الحرب لا تقوم للدولة أي قيامة » (١٧). وفي كلمة أخرى تذكرنا بما قاله موشي ديان عن روعة الحرب والعواطف الرفيعة التي تثيرها في نفس المقاتلين ، قال في كتابه السياسة « ان روعة الحرب تكمن في إبادة الرجل الضعيف في إطار الصورة الضخمة للدولة وتخرج إلى الوجود بالبهاء الكامل لروح التضحية من كل مواطن من أجل أخيه المواطن الآخر . » (١٨) .

ما الذي تطمح إليه الدولة من وراء كل هذه الحروب وكيف تعبر عن إرادتها نحو القوة ؟ أجاب ترتشكه عن مثل هذه الأسئلة بفكرة التوسع . فواجب الدولة الصغيرة هو ان تتوسع لتصبح أكبر فأكبر . « وإذا لم تكن الدولة بشكل كتلة ململمة واحدة فعليها ان تسعى لتسوية شكلها بما هو أفضل لها . » .

وبالطبع رفض من الأساس فكرة الديمقراطية والمساواة والتقدم ورأى أن الشعوب كالأفراد لا تساوي بينها ، والأفراد أشرار وسيبقون يعيشون في الشر . « هكذا تقضي سنة الطبيعة » - العبارة التي لاكها في كل مناسبة . وقد اعتمد ترتشكه في معظم محاضراته ومقالاته على الأسلوب العاطفي والخطابي وانتهج الديماغوجية والشوفينية إلى حد أفقد مؤلفاته التاريخية أي قيمة علمية ، وخاصة عندما تعلق بموضوع البحث بالمانيا . وفي الوقت الذي كانت فيه المانيا تهدد أوربا بقوتها وسعيها إلى التوسع ، كان ترتشكه يضحج بأجراس الخطر الذي يحيط بها من كل صوب ، الأمر الذي يتطابق تماماً مع مسلك الناطقين الاسرائيليين . ويقال مثل ذلك عن تأكيده على الاعتزاز القومي الى حدّ رفض أي شيء خارجي . وشدد كسائر الفولكيين على المستوطنات الزراعية كأحسن شكل للحياة القومية الصحيحة (١٩) .

(١٧) مختارات من محاضرات ترتشكه في السياسة ، لندن ، ١٩١٤ ، ص ١٥ ، ١٦ ،

(١٨) ترتشكه ، السياسة، لندن ١٩١٦ ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(١٩) ترتشكه ، السياسة ، ج ١ ص ١١٦ .

وتناول المسألة القومية فرأى ان هناك صراعاً مستمراً بين الدولة التي تريد ان تملغم قومياتها وأقلياتها وبين الأقليات القومية التي تريد ان تخلق نسلها دولها الخاصة بها . وفي هذا الصدد ، رجح كفة الأقلية القومية التي تصر على التمسك بهويتها ومصيرها ، فالعلاقة القومية بالنسبة له تقوم على رابطة الدم ، ولهذا فشلت الامبراطورية الرومانية في محاولتها لدمج الأمة الجرمانية بالأمة اللاتينية . وردد هنا كلمة موازية لكلمة بن غوريون الشهيرة « اليهودي غير قابل للاندماج » فقال « كانت محاولة رومنة الالمان عملية مستحيلة » (٢٠) .

وإذا لم يكن رواد الصهيونية قد تتلمذوا بالفعل في الجامعات الالمانية التي حاصر فيها ترتشكه وترأس أقسامها التاريخية فلا بد أن اطلعوا على كتاباته المنشورة التي شاعت بين الأوساط اليمينية في أوروبا الوسطى . ومهما كان الأمر ، فان التوازي في التفكير يغنينا عن البحث عن حلقات الرابطة الفعلية المباشرة . وينطبق هذا على ترتشكه كما ينطبق على نيتشه فان الموقف السلبي الذي اتخذه كلا المفكرين تجاه الديمقراطية والمساواة والبرالية والتآخي الأممي والشرعية والقيم الاخلاقية الدولية قد وجد صداه في أقوال رواد الصهيونية وأفعالهم .

من المعروف عن هرتزل انه قد أعرب كثيراً عن احتقاره للديمقراطية « الديمقراطية هراء سياسي لا يصدر إلا من جمهور الرعاع في صورة ثورة » (٢١) واقترح عقوبة الاعدام جزاء لكل من تسول له نفسه من هؤلاء الرعاع القيام بتهيج سياسي . وترضية للاتجاهات البرالية التي اعتبرت البرلمان جزءاً من حياة العصر الحديث ، فقد أشار في هذه الحالة إلى ضرورة تعيين ثلث الأعضاء من قبل « الحاكم » والثلث الآخر من قبل الجامعات (فكرة الصفوة النيتشوية) والثلث الباقي من قبل المجالس البلدية . ثم جرد

(٢٠) ترتشكه ، السياسة ، ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(٢١) يوميات هرتزل ، ج ١ ص ٦٢ ، ٢١١ .

هذا البرلمان من سلطة تنحية الحكومة (*) . أما بالنسبة للصحافة فرأى من الضروري تحديد حريتها وفرض قيود « واسعة عليها » وآمن بالنسبة للمفاوضات مع الدول الكبرى ان تجري هذه المفاوضات سرّاً مع الحكومات القائمة بدون معرفة البرلمانات ورعاع الجماهير (٢٢) . وقد مارس بالفعل هذا الأسلوب في حياته السياسية وكثيراً ما أثار حفيظة زعماء الحركة الصهيونية الآخرين بتصرفاته ومبادراته بدون الرجوع إليهم ، بل وفي بعض الأحيان مع مخادعتهم .

المهتدين

وقد توله هرتزل عبادة القوة وأعطى صدى لفكرة نيتشه الرئيسية عن إرادة القوة بالشعار الذي أعطاه لقصته « الأرض القديمة الجديدة » « إذا عقدتم إرادتكم عليها فهي ليست بأسطورة . » وفي كراسته الشهيرة « الدولة اليهودية » كتب قائلاً « . . . ان كل مسألة تتأثر في العلاقات بين الأمم تتوقف على القوة » و « القوة تأتي قبل الحق » (٢٣) .

وكشف على المستوى العملي عن مدى إيمانه بالقوة بانضمامه إلى جمعية البيا ، الجمعية الطلابية اليمينية والعنصرية وحمل شعارها بزهو على سترته . وكان من النشاطات الرئيسية لهذه الجمعية تعلم المبارزة والقيام بها وهو ما فعله بالضبط وكتب قائلاً « نصف درنية من المبارزات ستحقق تحسناً عظيماً في وضع اليهود في المجتمع » . وشاركه فيما بعد في هذا الايمان بالمبارزة وضرورة اشتراك اليهود فيها خليفته في رئاسة المنظمة الصهيونية ناحوم سوكلو . وكانت الشخصيتان اللتان استحوذتا بإعجاب ثيودور هرتزل شخصية بسمارك وشخصية سسل رودس ، باني كيان مستعمرة روديسيا العنصرية .

وأكد ثيودور هرتزل على القوة العسكرية للدولة اليهودية وضرورة

(*) انظر الهامش ٢١ .

(٢٢) يوميات هرتزل ، ج١ ، ص ٨٢ .

(٢٣) هرتزل ، الدولة اليهودية ، طبعة لندن ، ١٩٣٤ ، ص ٥ .

خوضها حروباً عنيفة انتصارية . وأعرب في مواقف متعددة عن استهجانه للالتزامات والاخلاقيات الدولية . وفي مصارحة مذهلة من مصارحاته البليغة في يومياته كتب مشيراً إلى استعمال النفوذ المالي اليهودي في السيطرة على جمهوريات أمريكا اللاتينية (أثناء التفكير في إقامة الوطن اليهودي هناك) وتقديم المساعدات المالية لها « حتى ذلك الحين الذي يقرر فيه قوادنا العسكريون ان القوة اليهودية أصبحت قادرة على التغلب على جميع قوة تلك الجمهوريات سوية معاً » .

وفي مناسبات أخرى شدد على ضرورة انتهاج السرية في العمل السياسي واستخدام الرشوات وتسخير أبواق الدعاية في إعادة توجيه الرأي العام والتحليل في معاملة السكان الموجودين . « ينبغي انتزاع الأراضي من الفقراء وإخراجهم إلى ما وراء الحدود وشراء الأراضي الأخرى من الأغنياء وتشجيعهم على الاعتقاد بأنهم إنما يخدعون اليهود . يجب استعمال دلائل ووكلاء دلائل بصورة سرية وحملهم على العمل في نفس الوقت بدون أن يعرف أحدهم باسم من يتعاملون إذ ينبغي ان يتظاهروا بأنهم إنما يقومون بالشراء لحسابهم الخاص . » (٢٤) .

ومهما شاء الباحث أن يتخذ من موقف تجاه هرتزل فلا مفر له من ملاحظة البعد العنصري في كتاباته . وقد لاحظ دزموند ستوارت ببساطة ان كلمة « عرق » قد ترددت مراراً وتكراراً على لسان الزعيم الصهيوني فقال : « ان استعمال هرتزل للمصطلحات العنصرية ليس بالشيء الغريب من رجل عاش في عصره وخضع لثقافته . » ولاحظ ستوارت ان هرتزل تحول فيما بعد من استعمال كلمة « عرق » إلى استعمال كلمة « أمة » كبديل لها بعد ان التقى بيهودي ذي سياء وملامح كريمة المنظر وأقرب ما تكون إلى السياء الافريقية (٢٥) .

(٢٤) يوميات هرتزل ، ص ٩٠ .

(٢٥) D . Stewart ، تيودور هرتزل ، لندن ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى الجناح الفاشستي من الحركة الصهيونية الذي انشق تحت لواء جابوتنسكي من المنظمة الصهيونية العالمية وأصبح يعرف باسم « المراجعين » . ولعب هذا الجناح دوراً رئيسياً في المصير الصهيوني حتى استلم الحكم على يد بيغن في أيامنا هذه . ان تركيز المراجعين على القوة والارهاب والغلبة العنصرية والبرنامج الفاشي عموماً من الأمور المسلم بها والتي تعترف بها الأحزاب الصهيونية الأخرى . وكان برل لوكر ، الصهيوني العمالي ، قد وصفهم بكل بساطة بأنهم هتلريون . وكانوا يرتدون القمصان البنية ويتمون إلى قوة العاصفة وينظمون الحرس الشخصي ويتلقون التدريب العسكري في زمن السلم كما فعلت الأحزاب النازية والفاشية قبل الحرب العالمية الثانية . وقد كتب وليم زكرمان بحقهم قائلاً « انهم يأتون إلى فلسطين . . . لأنها البلد الوحيد الذي يستطيعون فيه ان يحصلوا على فاشية خاصة بهم . » ومن المهم ان نتذكر بأن هذا الجناح اليميني المتطرف لم يكن محصوراً بأقلية تافهة بل كسب بصورة عامة نحو ثلث أصوات الكوادر الصهيونية منذ الثلاثينات .

وقد برز الاهتمام بالقوة والبطولة والرجولة على المستوى العملي بعد رسوخ الكيان الصهيوني في فلسطين ، وراح الأدباء والمؤرخون ينقبون صفحات التاريخ القديم ليتغنوا ببطولات بني إسرائيل . وكان شاعر الصهيونية الأول بياليك ممن تغنى في مدح « القوة البدائية الحيوانية الرجولية » وتقديس العاطفة والطبيعة . وقد عكست وزارة الدفاع الاسرائيلية صوراً من هذا التأليه المتعظم لشخصية الرجل المحارب في كتابها « عشرون عاماً من الكفاح من أجل الاستقلال » . وقد ضم الكتاب قصصاً ومقابلات وتعليقات تعبر جميعاً عن هذا الاتجاه . وكان من حلقاتها ما سرده مثير هار صهيون ، « الغائر الجسور » ، كما تغنى بوصفه موشي ديان واستعماله للسكين في قتل العرب .

« وخزات ضمير ؟ كلا ، لماذا أشعر بوخزات ضمير ؟ ان من السهل أن تقتل رجلاً بإطلاق النار عليه من بندقية . تسحب الزناد وينتهي كل

شيء . ولكن الأمر يختلف تماماً عندما تستعمل السكين . انك هنا تقاتل بحق . باستطاعة العدو ان يتغلب عليك ، ولكنك في النهاية تتغلب على العدو . هذا شيء رائع . إنه لشعور عظيم . إنك تدرك بأنك رجل ذكر» (٢٦) .

وقد واجه رواد الصهيونية هذه المشكلة - مشكلة أما أنت أو عدوك - مبكراً في تاريخهم ووجدوا طريقين لحلها ، الأول في المراوغة والمناورة والثاني بالسيف والقوة . وجاء كلا الحلين ضمن الاطار التقليدي للسياسة الدولية للعنصرية . وهكذا كتب شمويل برغمان في ١٩١٥ :

« هذه هي أوجه النزاع ولا فائدة من التصرف كما تتصرف النعامة . بالرغم من كل التفسخ والرشوة والاضطهاد الذي مني به العرب ، فاني ما زلت واثقاً أن أسلوب موسى ، أسلوب السيف ، هو الأطهر والأنبئ » (٢٧) .

ومن الناحية الأخرى نجد في التوسع الاسرائيلي الحثيث تطبيقاً عملياً لوصايا ترتشكه بالنسبة لرقعة الدولة الصغيرة . ومثل ذلك يمكن أن نقول بالنسبة للموقف من المؤسسات الدولية . فمن الحقائق التاريخية ان الوكالة اليهودية والسلطات الاسرائيلية فيما بعد بقيت على طرفي نقيض من عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة . وجاءت انتهاكات تل أبيب للقرارات الدولية ومعارضتها لتواجد القوات الدولية على جانبها من الحدود وتشككها في أي مشروع ينطوي على تدخل الأمم المتحدة جزء من موقفها الايديولوجي من فكرة الوثام الدولي . فإسرائيل تتعاون مع المنظمة الدولية عندما تعلن هذه المنظمة قيام الدولة الصهيونية وتؤكد على سيادتها ، ولكنها تتمرد عليها بالمنحى الذي دعا إليه ترتشكه ، عندما تتعارض إجراءات الأمم المتحدة مع الارادة الصهيونية . لا شيء جدير بالاهتمام فوق إرادة الكيان

(٢٦) روفن افينوعام ، عشرون عاماً من أجل الاستقلال ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤ .

(٢٧) صوت الصهيونية ، رقم ٨ ، مدل ايست انترناشنال .

الصهيوني - الدولة بالمعنى الذي أكد عليه ترتشكه . ولا بد ان نلتفت إلى توازي الشكوك الصهيونية بهيئة الأمم المتحدة باستخفاف دول المحور بعصبة الأمم ومقرراتها في الثلاثينات .

وكانت الحركة الصهيونية قد أوضحت موقفها بجلاء من النظام الدولي ونفيها لإمكانية إدارة عصبة الأمم لفلسطين أو أي بلد آخر ، كما ذكر هاري شاسر ، على أساس « ان ما يعنى به الجميع لا يعنى به أحد . » (٢٨) وهكذا أثرت المنظمة الصهيونية العالمية ان تدير بريطانيا فلسطين مباشرة من لندن على أن تديرها عصبة الأمم من جنيف . وأظهرت نفس الموقف في معارضتها لتدويل القدس مفضلة تقاسمها مع الأردن وحرمان الاسرائيليين من زيارة الأماكن اليهودية المقدسة على السماح للأمم المتحدة بإدارتها بنظام دولي .

وطالما عانى المراقبون الدوليون من مواقف تل أبيب تجاههم وسجلوا معاناتهم في مذكراتهم التي نشروها فيما بعد (٢٩) . وقد أيد جerald كاوفمان ، النائب العمالي الصهيوني البريطاني انتشار مثل هذا الشعور العام في إسرائيل تجاه الأمم المتحدة « التي يعتبرها الناس هنا نكتة بايخة » وتساءلت منه سيدة محترمة ومؤدبة كما وصفها « ألا يوجد هناك من يقتل أوثانت ؟ » (٣٠) ولم يكن حديثها هذا من باب الكلام المجرد فقد سبق للصهاينة قبل ذلك أن اغتالوا بالفعل الوسيط الدولي للأمم المتحدة الكونت برنادوت لمجرد تحديه التوسع الاسرائيلي على حساب العرب . وقد تفنن الاعلاميون على الجانب العربي في إحصاء وتبويب المخالفات الاسرائيلية لقرارات وتوصيات الأمم المتحدة والمؤسسات التابعة لها . وكشفت أحداث لبنان في عام ١٩٧٨ عن مدى كره

(٢٨) H. Sacher ، فلسطين يهودية ، المنظمة الصهيونية ، ١٩١٩ .

(٢٩) انظر E. L. M. Burns بين العرب والاسرائيليين ، لندن ، ١٩٦٢ ، K .

von Horn جندي من أجل السلام ، لندن ، E. H. Hutchison ، مدنة عنفية ، نيويورك ، ١٩٥٦ .

(٣٠) النيوسيتيسمان ، ١٨ / ٩ / ١٩٧٠ .

السلطات الاسرائيلية للوجود الدولي بتسليم مواقعها العسكرية إلى المتمردين اليمينيين في جنوب لبنان بدلاً من قوات الأمم المتحدة كما كان المقضى . وقد وقعت هذه القوات تحت نيران المتمردين المنطلقة من داخل إسرائيل ويتوجيه ومساندة الضباط الاسرائيليين باستمرار كما اعترف قائد القوات الدولية الجنرال عمانوئيل ارسكين (٣١) . ويتضح جلياً ان إسرائيل تفضل حماية حدودها بعصابات من المتمردين بدلاً من قوات دولية مسؤولة (٣٢)

وقد أصبحت المراوغات السياسية والدبلوماسية للحركة الصهيونية مضرراً للأمثال وظاهرة التفت إليها سائر الباحثين المستقلين . وبصراحته المحرجة ، أعطانا جابوتنسكي أمثلة من فن التلاعب اللفظي والمراوغة . قال في نصيحة له إلى أتباعه « بدلاً من التحدث عن إسرائيل على كلا الجانبين من نهر الاردن ، يمكنكم ان تقولوا إسرائيل ضمن حدودها التاريخية في عهد الملك داود أو بدلاً من ذلك قولوا في زمن القبائل الاثني عشرة ، أو الاستيطان على كامل الاقليم الخاضع للانتداب . » (٣٣) .

وكان جابوتنسكي قد ناشد أتباعه من المراجعين بالعمل على أساس فصل التكتيك عن الاخلاق والتأهب للنزاع المحتم بين العرب واليهود فلا فائدة هناك من التحلي بفكرة السلام . وقد نفى التهمة التي وجهت إليه بالدعوة لاتباع سياسة اعتدائية قائلاً ان اتباع مثل هذه السياسة سيتوقف على توفر القوة المادية (٣٤) . وكما تأمل هرتزل بالتخلص من السكان الأصليين بالمكر والحيلة ، نصح جابوتنسكي باتباع مثل هذا الأسلوب ، لاجراج العرب من فلسطين . وفي أثناء ذلك وضع مقترحات مختلفة لتأسيس مؤسسات يهودية لدعم المستوطنين اليهود في معزل عن باقي السكان . وكشف عن أسوأ موقف عنصري من النوع الذي نتوقعه عادة من غلاة

(٣١) التامس ٢٧ / ١١ / ١٩٧٨ .

(٣٢) انظر Count Folke Bernadotte ، إلى القدس ، لندن ، ١٩٥١ .

(٣٣) J. B. Schechtman ، قصة جابوتنسكي ، نيويورك ، ١٩٦١ ، ص ١٤٩ .

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٦٥ و ٧٥ .

العنصريين البيض في افريقيا والولايات المتحدة عندما كتب في برقية له إلى المندوب السامي البريطاني الذي أمر بسجنه في سجن عكا « لا تقع بهذا الخطأ . الأفضل لك ان تتركني هنا في سجن عكا من أن تضعني على نفس المستوى مع واحد أسود (Blackie) » (٣٥) ، مشيراً بذلك إلى المواطن الفلسطيني . وبعد احتلال إيطاليا الفاشية لاثيوبيا أشار جابوتنسكي إلى ترجيح إعطاء انتداب فلسطين إلى إيطاليا بدلاً من بريطانيا .

إن كل ما ورد سرده في هذا الفصل من تأكيد على القوة والارتقاء المستمرين اللذين يأخذان على مستوى الدولة شكل التوسع العسكري والجغرافي يؤديان إلى تقبل النزاع كحالة طبيعية للمجتمع البشري . وأعرب جابوتنسكي عن احتضان هذه الحالة بكلمته البليغة « انني أقاتل ، ومن ثم فاني موجود . » وقد أدى الاصرار على الفوز ودعم إرادة القوة في هذا النزاع إلى تجاهل قيم التفاهم العالمي وأسس القانون الدولي وعواطف الاخوة الانسانية . وقد صبت أفكار نيتشه وترتشكه بصورة مباشرة أو غير مباشرة تأثيراتها في معين المدرسة العنصرية التي أعطت ثمارها الخاصة في القطاف العنصري الذي تعرضنا إليه .

(٣٥) نفس المصدر ، ص ٣٦٢ .

الفصل السابع

العنصرية الصهيونية في التطبيق

إن غرض هذا البحث هو الرجوع بالصهيونية إلى أصولها العنصرية وليس التصدي لتطبيقاتها في التمييز العنصري ، بيد ان من الصعب فصل الجانبين كلياً عن بعضهما البعض ولا بد ان يؤدي ذلك إلى ترك الموضوع ناقصاً بالرغم من كل الثروة الضخمة من المطبوعات التي عاجلت جوانب التمييز العنصري الذي تمارسه إسرائيل .

والمهم في هذا الميدان هو ان نستوعب أبعاد هذه الممارسة ونتذكر كيف بدأت منذ فجر الحركة العنصرية ونلاحظ بنفس الوقت ان هذه الممارسة لم تقتصر على العرب فقط بل تعدت ذلك إلى اليهود الشرقيين أيضاً من ناحية والشعوب الملونة بصورة عامة من الناحية الأخرى .

قبل تدخل الحركة الصهيونية بصفتها السياسية في الميدان الفلسطيني ، كان هناك يهود أصليون في الأراضي المقدسة وكان هناك أيضاً يهود مستوطنون نزحوا إلى المنطقة من أوروبا بعاطفة دينية وبدون مطامح سياسية . وقد تعايش هؤلاء مع المواطنين العرب ، مسيحيين ومسلمين ،

بدون أي مشكلة . لقد استخدموا العرب في مزارعهم واستخدمهم العرب في الشؤون المدنية كالمحامة والطب والترجمة . ولكن هذا الموقف تغير كلياً بدخول الصهيونية السياسية التي تمسكت بشعار « استخدام اليد اليهودية » . واصطدم رواد الحركة الصهيونية مع المستوطنين الآخرين الذين كانوا يستخدمون عمالاً عرباً وقادوا مظاهرات ضدهم وحاصروا أبوابهم . وأصبحت أسس الحركة منذ البداية التفرقة بين اليهودي وغير اليهودي . وكان احاد هاعام من أول الصهاينة الذين لفتوا نظر الحركة إلى خطاياها في حق المواطنين العرب في مقالات نشرها بعد زيارته لفلسطين (١) .

وقد بررت المنظمة الصهيونية هذا الموقف بالإشارة إلى ضرورة استخدام العمال اليهود خوفاً من بطالتهم ومن ثم مبارحتهم البلاد وعودتهم من حيث أتوا ، مما يمكن ان نعتبره مثلاً آخر من أمثلة الغاية تبرر الوسيلة التي وقعت بها الحركة الصهيونية باستمرار . ولكن حتى مثل هذا التبرير لا يلبث أن يتلاشى عندما نتأمل مدى الأبعاد التي أعطتها المنظمة الصهيونية في تعميق ذلك الشعار إلى حد منع النقابات اليهودية من قبول أعضاء غير يهود ومنع مزارع الكبوتز من السماح للعرب بالانضمام إليها بصرف النظر عن موضوع خطر البطالة . وكان بن غوريون قد أعرب في مذكراته عن معارضته الصارمة لتشغيل الأيدي العربية بأي نسبة كانت مما يجعل حديثه عن إزالة الجدار الفاصل بين العرب واليهود مجرد نفاق سياسي (٢) . وقد بقيت تنظيمات الكبوتز ترفض إلى يومنا هذا وفي ظروف عانت فيها الكبوتزات من نقص الأيدي العاملة .

وبقيت هذه السياسة المتأصلة في التمييز العنصري مستمرة بشكل أو بآخر إلى أيامنا هذه . وفي مناقشة دينية جرت في القدس المحتلة اقترح

(١) انظر S. V. Smith ، الصهيونية : الحلم والواقع ، لندن ١٩٧٤ ، ص ٣١ .

(٢) بن غوريون ، ص ٧٢ ، ٧٧ .

الحاخام بكشي دورون منع اليهود من بيع أي عقار للاغيار واعتبار ذلك خطيئة دينية وخيانة سياسية . وأيده رئيس حاخامي تل أبيب ، عباديه جوزيف ، وأضاف ضرورة فضح جميع من يشتري فواكه من العرب . وقد علقت جريدة التايمس اللندنية على ذلك فوصفته بأنه ينم عن « رائحة المانيا قبل الحرب العالمية » (٣) .

وقد أعطت وزارة الزراعة مثل هذه الآراء تطبيقاتها العملية فشنت حملة ضد اليهود الذين يؤجرون أراضيهم الزراعية لفلاح عربي أو يستخدمونه فيها على أساس المشاركة أو أي نحو مشابه (٤) . وهدد وزير الزراعة في شباط ١٩٧٦ بقطع الماء عن المستوطنات الزراعية التي تستخدم العرب والبدو في أعمالها . (٥) .

لقد قامت الحركة الصهيونية في الميدان العملي على نشاط « الصندوق اليهودي القومي » ، المنظمة التي تولت مهمة جمع الأموال من الخارج وابتياح الأراضي في فلسطين لتصبح كما يقول شعار المنظمة « ملكاً وقفاً على الشعب اليهودي » . وترتبت نتائج خطيرة بالنسبة لهذا الشعار فيما يتعلق بموضوعنا . للصندوق اليهودي القومي ان يشتري ما شاء من أراضي العرب ولكن لا يجوز بيع أي شيء من هذا الملك إلى العرب أو إيجاره لهم . وقد لفت تقرير السيرجون هوب سمبسون في عام ١٩٣٠ النظر إلى تركيز كافة التنظيمات الصهيونية على التمييز في الاستخدام وقصره على اليهود فقط سواء أكان ذلك بالنسبة لأملاك الصندوق اليهودي القومي (كرن كيماث) أو صندوق التأسيس (كرن هايزود) . واستشهد التقرير بالفقرات الخاصة بهذا التمييز في العمل (٦) .

(٣) التايمس ، ١٦ / ٨ / ١٩٧٢ .

(٤) معاريف ٣ / ٧ / ١٩٧٥ .

(٥) ها آرتس ٢٧ / ٢ / ١٩٧٦ .

(٦) تقرير عن الهجرة واستعمال الأرض والتنمية في فلسطين ، ١٩٣٠ ،

ومن الظاهر ان هذه الممارسات المتعلقة بالأرض والعقارات والبضاعة العربية لها خلفيتها التاريخية التي أشرنا إليها في الفصل الأول في الحديث عن الغيتو والاحكام السائدة فيه . ولا شك ان للحاخامين الاسرائيليين سندهم التلمودي والفقهى في تحريماتهم التي أتينا على ذكرها أعلاه .

لقد أسهب الباحثون في تبويب الأشكال المختلفة من التمييز العنصري الاسرائيلي ضد العرب . ويمكن القول بإيجاز ان الأمثلة الرئيسية لهذا التمييز قد تناولت :

- ١ - العمل ، عدم استخدام الايدي العاملة العربية ، منح العرب أجوراً أقل في حالة استخدامهم ، حرمانهم من أصناف مختلفة من الحماية العمالية كاستخدام الأولاد العرب دون السن القانونية ، حصر استخدام العرب في ميادين الأعمال غير الماهرة والقليلة الأجرة . وقد كشف الكتاب السنوي لاسرائيل لعام ١٩٧١ ان عدد العرب المستخدمين كموظفين تنفيذيين في المؤسسات والوزارات بلغ سبعة فقط من مجموع ١٦٢٢ موظفاً^(٧) .
- ٢ - السكن ، إجبارهم على السكن في أماكن معينة ، حرمانهم من الاقامة في مناطق خاصة مثل الكرمل ، والمدن اليهودية الصرفة ، ترحيلهم من أماكنهم لأسباب مختلفة ، تركهم في أحوال سكنية سيئة . وقد حظرت عليهم الحركة بين معظم المناطق بدون إذن (رفع معظم هذا الحظر في الآونة الأخيرة) . وقام أحد السينمائيين الاسرائيليين في فيلم « أنا أحمد » بتصوير مشكلة الشباب العربي في محاولة الحصول على غرفة سكن في منطقة يهودية . وجاء هذا الفيلم الذي أخرج قبل حرب ١٩٦٧ ترديداً لكثير من الأفلام المشابهة المتعلقة بالمشاكل الاجتماعية للملونين في العالم الانكلوسكسوني ومستعمرات البيض في افريقيا .

(٧) انظر « كيف تعامل اسرائيل العرب في الأرض المحتلة » ، مايكل آدمز ، المؤتمر الفكري حول الصهيونية ، بغداد .

٣ - حرمان الفلسطينيين من كثير من الحقوق المدنية ولا سيما فيما يتعلق بحرية الحركة والتعبير عن الرأي وإخضاعهم لكثير من القيود المترتبة على مجموعة واسعة من الأنظمة الأمنية والعسكرية التي يرجع بعضها إلى عهد الانتداب.

٤ - التفرقة ضدهم في الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية . ونجد ان الكيان الصهيوني بكامله يقوم على مجموعتين من البشر واحدة يهودية لها أرقامها ومؤشرات الاحصائية ووسائلها الخاصة بها والأخرى غير يهودية . ورغم ان غير اليهود يشكلون سدس السكان فان لهم جهازهم المنفصل في الصحة والتعليم والاسكان يرأسه وكيل وزير « للأقليات » . وقد كتب الكثير حول تضييع فرص الدراسات العليا على الطلبة الفلسطينيين . وذكرت الاحصائيات ان عدد الطلبة العرب الجامعيين كان ٧٠٠ في عام ١٩٦٩ / ١٩٧٠ من مجموع ٣٧٣٤٣ طالباً (٨) .

وقد كشفت جريدة ידיעות احرونوت في ميدان آخر من الخدمات الاجتماعية إلى محاولة السلطات الحد من تكاثر السكان العرب وتشجيع ذلك بين اليهود عن طريق منح علاوات نقدية لأطفالهم دون أطفال العرب تحت ستار تخصيص هذه العلاوات للمسرحين من الجيش فقط (٩) .

٥ - الاجراءات التعسفية المرتبطة بأنظمة وقوانين العقارات الصادرة بشأن أراضي العرب وعقاراتهم والتي تؤدي عموماً إلى تعريض حق المالك العربي إلى الضياع أو التقييد وتحرمه بنفس الوقت من إمكانية شراء أو حيازة أو إيجار أراضي الحكومة والصندوق اليهودي القومي والتي تبلغ

(٨) الصهيونية والعنصرية ، يورايا .

(٩) ידיעות احرونوت ، ١٠ / ١٠ / ١٩٧٥ .

٨٩ ٪ من مجموع مساحة إسرائيل . وتدخل وزارة الدفاع في الميدان ضمن صلاحياتها في إصدار أوامر عسكرية بحظر غير اليهود من دخول مناطق واسعة . وقد أثارت قضية القريتين المسيحيتين بيرعام واكرت ضجة عالمية نظراً لاصرار سكانها على الرجوع إليهما .

٦ - التمييز ضدهم من حيث الجنسية ، وهو الأمر الذي أثار كثيراً من النقد وأكد على السياسة العنصرية لتل أبيب ، ولا سيما فيما يتعلق بقانون العودة الذي يعطي أي يهودي الحق في دخول إسرائيل واكتساب جنسيتها فوراً على خلاف كافة الاغيار بمن فيهم العربي الذي ولد وترعرع هناك . وغالباً ما أثير كثير من اللغط العنصري بشأن إثبات أو نفي صفة « اليهودية » عن أفراد من زواج مختلط أو أصل مشكوك فيه .

وأدى قانون الجنسية لعام ١٩٥٢ وتعديلاته في عام ١٩٦٨ إلى حرمان آلاف العرب المقيمين في إسرائيل من الجنسية . وتنص هذه التشريعات على منح الطفل اليهودي الجنسية اليهودية فور ولادته في حين يترك هذا الحقل فارغاً بالنسبة لغير اليهودي حتى يثبت صاحب الشأن حق المولود في الجنسية الاسرائيلية بإثبات توافر شروط متعددة . ومتى ما عجز عن إثبات كافة هذه الشروط فيعتبر « أجنبياً » أو بدون جنسية ، وتبقى هذه الصفة موروثه في أولاده وأولاد أولاده على خلاف المتعارف عليه دولياً في منح جنسية الدولة لأي طفل يولد فيها . وقد نشرت رابطة الحقوق المدنية والانسانية في تل أبيب منشوراً في أغسطس ١٩٧١ يفضح هذا الجانب من السياسة العنصرية .

ومما يجدر بالانتباه أن كثيراً من وقائع التمييز العنصري تظهر إلى الوجود وتسترعي النظر لا عند تشريعها أو تطبيقها وإنما عند التوقف عنها ، مما يؤكد من ناحية أخرى على البراعة الاعلامية والتطبيقية للمؤسسات

الصهيونية . ومن أمثلة ذلك نشر إلى ما أعلنته صحيفة يديوت اهرانوت في ٤ / ٣ / ١٩٧٦ عن الانتهاء من مصادرة أراضي الدروز والسماح لهم بالعمل في معامل الطائرات والحوانيت العسكرية ومعامل الجيش .

ويبرر الناطقون الصهاينة كثيرا من التعسفات ذات الطابع العنصري بالاشارة إلى حالة الحرب التي تجد إسرائيل نفسها فيها وما تتطلبه من إجراءات قاسية . ولكننا نجد نفس التعسفات العنصرية تسري على العربي القومي في نابلس أو الناصرة كما تسري على المجموعات الأخرى من غير اليهود ممن أثبتوا خضوعهم لتل أبيب وقاتلوا مع قواتها المحاربة ضد العرب بل وضحوا وأراقوا دماءهم في وقوفهم ضد الجيوش العربية . وكثيراً ما أثيرت الضجة في الصحف الاسرائيلية حول المعاناة القانونية التي تشقى بها هذه المجموعات رغم كل إخلاصها للكيان الاسرائيلي . وكمثال لذلك نسوق قضية عشيرة المخمان وحرمانها من الخدمات الطبية « اليهودية » (١٠) .

وحيث لا يمكن اللجوء إلى العذر العسكري - كما في ميادين الصحة والخدمات مثلاً- يلتجئ الناطق الصهيوني إلى الاعتذار بالاشارة إلى أن حالة العرب في إسرائيل أحسن من حالتهم في أكثر البلدان العربية الأخرى ويتمتعون بحقوق سياسية ومدنية أكثر - وهو العذر الكولونيالي التقليدي الذي كان يلتجئ إليه الانكليز والفرنسيون بالنسبة للهند والجزائر وغيرها من المستعمرات . وهذا طبعاً بغض النظر عن مدى صدق الادعاء واستحالة التحقق من احتمالات وإمكانات التطور مع الاستعمار وبدون الاستعمار . ويشير ناطقون آخرون أكثر شجاعة وصراحة إلى الاعتقاد الصهيوني الأساسي (والعنصري طبعاً) وهو انه لا مفر للأقليات من تحمل وزر وجودها كأقلية والعلاج الوحيد الكامل لمحتتها هو في هجرتها وتلاحمها بحيث تصبح أكثرية في مكان ما .

(١٠) يديعوت احرونوت ، ١٠ / ١٠ / ١٩٧٥ .

بيد ان الأهم من كل التعسفات العنصرية ضد العرب النظرة السائدة بين الصهاينة عن العرب وموقفهم الايديولوجي منهم . وربما جاء خير عرض لهذا الموقف في الاستفتاء الذي جرى بين مجموعة ممثلة للمجتمع اليهودي الاسرائيلي من حيث آراؤهم بشأن العرب . وكانت الاجابات بهذا الشكل : (١١)

لا	نعم	
٪ ٣٦	٪ ٥٣	العرب أكسل من الاسرائيليين
٪ ١٩	٪ ٧٤	العرب أقل ذكاء من الاسرائيليين
٪ ٢٦	٪ ٦٨	أكثر العرب يحملون حقداً أعمى ضد الاسرائيليين
٪ ١٧	٪ ٧٥	العرب أكثر قسوة من الاسرائيليين
٪ ١٢	٪ ٨٠	العرب أقل شجاعة من الاسرائيليين
٪ ٢٠	٪ ٦٦	العرب أقل ائتمناً من الاسرائيليين
٪ ٢٣	٪ ٦٧	العرب أخط من الاسرائيليين

وقد لاحظ مراسل الساندي تايمس اللندنية (١٠ / ٩ / ١٩٦٧) ان الاسرائيليين يجدون من الصعب جداً الانسجام مع العرب الذين يعتبرونهم « متخلفين عنهم تماماً » .

وتنعكس هذه الآراء الشخصية على الميدان العملي في المجابهة المستمرة ضد المواطن العربي في ميادين الزواج والحياة الاجتماعية والسكن . فقلما يرى أحد يهودية تتزوج بعربي أو العكس . وعندما يحدث ذلك في الأحوال الشاذة يجابه الزوجان حملة من الاضطهاد النفسي والاجتماعي . ومن أبشع حوادث الشرطة في الناصرة ان اليهود فيها انهلوا بالضرب والركل على شاب عربي حتى أماتوه لأنه تعاشر مع امرأة يهودية متزوجة ، (١٢) الامر

(١١) التايمس ، ١٢ / ٤ / ١٩٧١ .

(١٢) الساندي تايمس ، ١٨ / ٢ / ١٩٧٣ .

الذي يتوقع الانسان سماعه عادة من افريقيا الجنوبية أو حوض المسيسيبي من الولايات المتحدة .

وكما ذكرنا آنفاً حرم على العرب السكن في المدن اليهودية ولكن هذا التحريم تعدى النطاق الرسمي إلى النطاق الشعبي في منع مجاورة العرب . وعملت الجويش كرونكل (الصحيفة البريطانية الصهيونية) على حالة من هذه الحالات بقولها :

« لقد استعمل السكان اليهود في الناصرة العليا القوة لمنع أحدهم من إيجار شقته إلى عائلة عربية . ويذكرني ذلك بحادثة وقعت في نهاية القرن الفائت عندما حاول بعض اليهود الانتقال إلى بيت في كييل ستريت ، فابرى لهم الجيران الارلنديون وطردهم منه . ولكن الشرطة المحلية خفت لنجدة العائلة اليهودية . غير أنه ليس هناك ما يدل على ان الشرطة الاسرائيلية ستذهب بنفس المهمة لنجدة العائلة العربية » (١٣) .

وكشفت صحيفة ها آرتس عن حملة التواقيع والاحتجاجات التي قام بها اليهود في مدينة الكرميل ضد إيجار بيت إلى شخص عربي في تلك المدينة التي بنيت بصورة مخصصة لليهود . وقد علق رئيس بلدية المدينة على القضية بقوله « لا أعتقد ان السكن المختلط في نفس الحارة من الكرميل سيؤدي إلى تحسين العلاقات بين المجموعتين لان لكل منهما اعتباراتها الخاصة بهما . وتثار نفس المشكلة لو ان عائلة يهودية ذهبت وسكنت في إحدى القرى العربية » (١٤) .

وإذا كان هذا هو الشعور الرسمي والشعبي بين سواد الجماهير ، فان المفكرين الصهيونيين في إسرائيل لم يكونوا أقل تعصباً من رجل الشارع . وقد روى النائب البريطاني مكسويل هيلسوب كيف انطلق الدكتور هاكوهين ، رئيس لجنة الشؤون الخارجية للكنست في قذف قاس على

(١٣) جويش كرونكل ، ٣٠ / ١٠ / ١٩٧٥ .

(١٤) ها آرتس ، ٢٠ / ٧ / ١٩٧٧ .

العرب . وعندما اعترض النائب البريطاني على قسوة الكلام بحق اللاجئين الفلسطينيين ، أجابه الدكتور هاكوهين « انهم ليسوا بمخلوقات بشرية . انهم ليسوا بأناس . انهم عرب . » (١٥) وكثيراً ما وصلت السلطة الدينية إلى أبعد من ذلك فذكر الحاخامون الجمهور بقصص العهد القديم ووصاياه بشأن ضرورة إبادة السكان الغرباء في الأرض الموعودة . ومن الوقائع التي ذكرت في هذا المضمار ما قاله الحاخام شاؤول إسرائيل دفاعاً عن المسؤولين عن مذبحة قبية في عام ١٩٥٣ بتوكيده أن قتل الوثنيين جنحة بسيطة وأشار إلى أمر موسى بضرورة إبادة الميدين وأطفال الميدين في حرب انتقامية (١٦) .

وقد شنت السلطة الدينية للجيش الاسرائيلي حملة في السنين الأخيرة تحت شعار « الاحياء اليهودي » اصطبغت بصبغة عنصرية صرفة في تحملها على الاغيار وغرس روح الكراهية ضد الفلسطينيين وتأكيدها على تخلفهم عقلياً عن اليهود . وأصبحت المطبوعات الدينية لهذه الحملة أبواق نفير داوية تذكرنا تماماً بأقصى تطرفات النازية . ومن ذلك زعمها بان العرب في إسرائيل أجنب وتبغى معاملتهم بالأسلوب القديم الذي استعمله أبناء السلف في حق الأجانب (أي الابادة) (١٧) .

وعلى عكس ما يتصور بعض المراقبين الاوربيين في اعتبار مثل هذا الموقف مجرد نتيجة طبيعية للحروب المستمرة مع العرب وعدائهم لاسرائيل ، نجد ان للموضوع أوليات أقدم تكشف عن عنصرية أصيلة . وكان ناحوم سوكلو من أول من أشار في كتابه « تاريخ الصهيونية » إلى تأخر وانحطاط السكان الموجودين في فلسطين . وقد مضى في تاريخه عن الصهيونية إلى حد القول :
« رغم السوء الذي تتميز به الحكومة العثمانية بالقياس إلى

(١٥) هانسارد ، مناقشات مجلس العموم ، ١٨ / ١٠ / ١٩٧٣ .

(١٦) B . Shafi ، ميدل ايست انترناشنال .

(١٧) هاعولام هازه ، ١٥ / ٥ / ١٩٧٤ .

مستوياتنا ، فان الحكومات العربية التي لا تخضع لسلطة الاوربيين أثبتت بصورة عامة انها أكثر سوءاً عند تجربتها في المنطقة العثمانية في الأزمنة الأخيرة . انها حكومات جيدة إلى حد كاف عندما تكون من النوع البدوي الصرف ، كما في بلدان أواسط الجزيرة العربية ، ولكن عندما يتلوث سكانها ولو بأقل قدر ممكن بالعناصر غير العربية أو الأساليب أو الأفكار غير العربية ، فان الادارة العربية تصبح عندئذ ، كما يبدو ، عاجزة عن إعطاء أي حكومة فعالة » .

ومن المهم ان نلتفت إلى إشارة سوكلولو إلى « النوع البدوي الصرف » وكيف يتدهور هذا النوع النقي باختلاط دمه بدم الاقوام الأخرى فينحط . ويؤكد سوكلولو على ان سر تأخر العالم العربي يكمن في الاعراق المهجنة غير النقية .

« ان شعوب القسم العربي من الامبراطورية العثمانية عبارة عن شلة من الاعراق والمعتقدات والطوائف والأنظمة الاجتماعية المختلفة بدون أي رابطة مشتركة غير اللغة . ان الصفات الطبيعية لأرضهم تجعل ثلثهم برابرة مفترسين رحلاً يخافهم الثلثان الباقيان (١٨) » .

وتبع سوكلولو في هذا المنحى الكاتب الصهيوني و . ب . زف الذي أعطى الموضوع قلبه الايديولوجي العنصري المحض .

« في الواقع ، ليس هناك أي عرب في أي مكان كان ، بل لا يوجد حتى عرق مختلط اختلاطاً منسجماً إلى حد ما . لقد اختفى العرق العربي من الوجود كلياً في جميع أنحاء شبه الجزيرة ، ومن حل محلهم هم خليط منقش من الأجناس على درجة واطئة من التطور البشري ويتكلمون باللسان العربي . » .

ويمضي زف في كلامه بهذه النغمة ثم يعطينا هذا اللون من الفلسفة :

(١٨) سوكلولو ، تاريخ الصهيونية ، ج ١ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

« ونظراً لأن نقاء النسب في ملة محمد محل دائماً محل نقاء الدم ، فمن أين لنا ان نجد أحفاد قريش الآن ؟ وحتى في صميم قلب الصحراء العربية ، جرى تلويث العرق باضطراد باستيراد سيل من النساء الإماء ، وكثير منهن في السنوات الأخيرة من السودان والأقاليم الافريقية الأخرى . »

وعليه فلم يكتف الكاتب بالتأكيد على انحطاط العرب المعاصرين وإنما مضى ليوضح بان هذا الانحطاط وقع بنتيجة الاختلاط بدم الشعوب الافريقية (المنحطة طبعاً في عرقه) ومنها السودان ! ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هو إشارته العنصرية المنطلقة من التراث التلمودي بتأكيده على نقاء الدم المتسلسل عن طريق الام وتفضيله على نقاء النسب المتسلسل عن طريق الأب ، وهو ما سار عليه المسلمون كما سار جل الديانات والشعوب الأخرى .

ويشير زف في مكان آخر إلى الفلسطينيين باعتبارهم جزءاً من سكان سوريا الذين يصفهم بكونهم مجرد « زرق ورق من الدماء والعقليات » . ويمضي ليتناول الشخصية العربية فيشير إلى سماتها الفزيولوجية ويثبت بان العرب الحاليين هم ليسوا بعرب أساساً بالنظر إلى عيونهم وشكل وجوههم . . . الخ . ويذكر زف بان الحكومة البريطانية ليست بحاجة إلى من يذكرها بأن الفوارق بين العرب واليهود من حيث الأماني والذهنية والحضارة تفوق بكثير الفوارق التي تفصل بين الأتراك واليونانيين في قبرص (١٩) .

ومن الكلمات الشائعة على ألسنة المنظرين الصهيونيين في الإشارة إلى العرب وصفهم إياهم بالوحوش والمنحطين وغبار الانسانية ، كما يشير الاسرائيليون إلى شيء رديء بأنه « صنعة عربية » . وكثيراً ما يخلطون في

(١٩) W . B . Ziff ، اغتصاب فلسطين ، لندن ، ١٩٤٨ .

أذهانهم بين المسلم والعربي ويعتبرونها شيئاً واحداً . ومن هذا المنطلق ، حرر الدكتور كارلباخ مقالة افتتاحية لجريدة معاريف بعنوان « لن تستطيع التحدث مع الله » (ويقصد به هنا رب المسلمين) . وفي هذه المقالة ، أكد هذا الكاتب الذائع الصيت في تل أبيب والمتصل بشخصياتها السياسية ، على سلبية الدين الاسلامي واعتبره رجعيًا غامضاً وخانقاً معتلاً . اله المسلمين ، كما قال ، اله منحوس ومتقلب ولا يعترف بالمنطق . « لا فائدة هناك في إرسال أدوية إلى المسلم لأنه لا يؤمن بها ويؤمن بأن الله فقط يستطيع شفاؤه . الاشتراكية لا تنتشر بينهم ليس لخضوعهم إلى أرباب المال وإنما بسبب دينهم . انهم لا يقبلون بالديمقراطية ولا يؤمنون بحرية الرأي وحقوق الانسان بسبب دينهم أيضاً الذي يحضهم على قبول الدكتاتورية واعتبار القوة بمثابة « الحق » . وإذا وجدنا الديمقراطية معدومة بينهم فليس ذلك لأن الفرصة لم تسنح لهم لتحقيقها . انه الاسلام الذي علمهم على الانصياع للسوط . » .

الاسلام طبعاً كأي دين آخر ظاهرة ثقافية مكتسبة والمفروض في هذا الكاتب ان يعتبر كافة الصفات السيئة التي راح يدرجها ضد العرب صفات عرضية تتوقف على مدى تمسكهم أو عدم تمسكهم بدينهم ، ومن ثم يفترض فيه ان ينفي الحتمية التشاؤمية (وهي طبعاً صفة متأصلة بالعنصرين كما أسلفنا في الفصول السابقة) ويتطلع إلى اليوم الذي يتخلص فيه المسلمون من مصائبهم بتخلصهم من دينهم حسب رؤيته . ولكن الدكتور كارلباخ يخلص من استقراءه مخلصاً مغايراً يكشف عن تحامله على العرب لا كمسلمين وإنما كعرق :

« الخطر يكمن في تصورهم الاستبدادي للعالم ، من حبه للقتل المتأصل في دمائهم ، من افتقارهم إلى المنطق ، من أدمغتهم السريعة الانفعال . . . انهم جميعاً عاطفيون ومحتلون ومندفعون ومنعدمو العقل » .

« ان محاولة التباحث معهم على أساس المفاهيم العربية هي محاولة
الباس شلة من الوحوش لباس العدالة الغريبة » .

ونلفت نظر القارئ إلى كلمة « جميعاً » وما تحمله من تنظير عنصري
يدين جميع العروق بالصفات العرقية المقررة . كافة القطط لها مخالب وما ليس
له مخالب فهو ليس بقط . ويعطينا الكاتب مثلاً ظريفاً لهذا الاجماع العام على
العاطفة والاختلال والاندفاع وانعدام العقل بقوله ان كافة الشعوب قد
تركت حضارات تاريخية الا المسلمين . « لم يساهم الاسلام بأي شيء ولن
يساهم بأي شيء إيجابي . انه لم ينجب أي شخصية ساعدت على تقدم العالم
في أي ميدان من الميادين » (٢٠) .

ونجد هنا مرة أخرى نبرة هتلر في انطلاقاته الروحية ضد اليهود
واليهودية . اليهود لم يساهموا بأي شيء وكل مساهماتهم جاءت عن طريق
سرقة تراث الآخرين .

وليس من المستبعد بعد هذه المعطيات النظرية ان تجد القلة من
اليساريين والبراليين المنصفين كثيراً من الحرج والاضطهاد في محاولة التأخي
مع الأقلية العربية أو تبني قضاياها وحقوقها . ويعطينا التعنت الذي يعاينه
الأستاذ اسرائيل شاهاك مثلاً لما نقول . وطالما تلقى تهديدات ضد حياته
وسلامته . وشاركه في هذه المعاناة معظم أعضاء منظمة ماتزبان إلى الحد
الذي اضطر كثيراً من أعضائها إلى ترك اسرائيل والهجرة إلى الخارج .
وكشفت جريدة يديوت اهرانوت عن قضية عدد من الطلبة الذين طردتهم
إدارة مدرستهم لنشرهم مقالات تشير إلى حقوق المواطنين الفلسطينيين
والتفرقة ضدهم (٢١) .

وأشارت جريدة ها آرتس في ٧ نيسان ١٩٧٦ إلى المصير المشابه الذي

(٢٠) معاريف، ٧ / ١٠ / ١٩٥٥ .

(٢١) يديوت احرونوت، ٤ / ٤ / ١٩٧٦ .

حاق بفريق آخر من الطلاب لسبب مشابه . ويستطيع أي عضو في الحزب الشيوعي (ركاح) أن يفيض بشتى ضروب القصص والوقائع عن المصاعب التي عاناها نتيجة تأخيه مع المواطنين العرب . وقد لاحظ مراسل مجلة الايكونومست البريطانية^(٢٢) ان هناك اتجاهاً عاماً في إسرائيل لردع أي شخص يحاول توطيد صلات مع العرب وحمله بصورة غير رسمية على تحاشي ذلك ، بل واتهامه أحياناً بالشيوعية . والجدير بالملاحظة هذه الصفة « غير الرسمية » التي يوجهها الاسرائيلي غير العنصري على صعيد الحياة الاجتماعية والعملية . ولا علاقة لذلك بإيمانه أو عدم إيمانه بالماركسية ، وإنما يتوقف كلياً على مؤاخاة العرب أو الدفاع عنهم أو الاختلاط بهم ، ونحو ذلك مما يؤكد على البعد العنصري للمجتمع الصهيوني بشكل لا يختلف إلا من حيث الدرجة عن الحالة في روديسيا أو افريقيا الجنوبية . وينفس الوقت يمكن أن نقول ان نظرة المستوطنين البيض في افريقيا أقل قسوة ومقتاً وأكثر إنسانية وعطفاً نحو الزوج من نظرة الاسرائيليين نحو العرب .

ولا بد ان نشير أيضاً إلى الاطار العنصري الذي تصاغ ضمنه بعض الحركات والمواقف الصهيونية المتعاطفة مع الجانب العربي بشكل أو آخر . ويستند هذا الاطار على فكرة الاخوة السامية وان اليهود والعرب أبناء عم وان اللغة العبرية والعربية توأمان ونحو ذلك من الأفكار التي تقوم أولاً وآخراً على رابطة الدم أو التسلسل العرقي . وبلغ الأمر بالدكتور ناحوم غولدمان ان عزا النزاع العربي الاسرائيلي وما تضمنه من عنف وعناد إلى العنف والعناد الذي يسبغ العداء السامي التقليدي بين أبناء العم وقال « ان للعرق السامي ذاكرة عميقة ولا ينسى مطلقاً ، وقلما يغفر عما سلف . »^(٢٣) . ونشير في هذا الصدد إلى الحركة السامية التي انتشرت بين أقلية من المثقفين الاسرائيليين وتأثر بها الصحفي والنائب المستقل يوري افيري . لقد

(٢٢) الايكونومست ، ٢٤ / ٦ / ١٩٦٧ .

(٢٣) الغارديان ، ١٨ / ٥ / ١٩٧١ .

عارضت هذه الحركة السياسات الرسمية ضد العرب ودعت إلى تغيير جذري في اتجاه إسرائيل يقوم على نظرة تاريخية تستند على وحدة الشعبين الساميين ، العربي والعبري ، الفكرة القبلية والعنصرية في أساسها العام .

كثيرا
سه

الفصل الثامن

إسرائيل وأبناء حام

كثيراً ما أصبح العرق الزنجي محكاً لموقف الانسان الحقيقي من التمييز العنصري . وكما كشفت كولونيلية أوربا الشمالية عن عنصريتها بعد اصطدامها بالمجتمعات الزنجية ، كشفت إسرائيل عن مواقف متشابهة بعد اصطدامها بالمعارضة الافريقية . وقد أشرنا في الفصل السابق إلى ما كتبه زف عن تدهور العنصر العربي بنتيجة تلوث دمه بدم الشعوب الافريقية . وأشرنا قبل ذلك إلى الصدمة التي شعر بها هرتزل عند مقابلة يهودي ذي سياء زنجية . ولقد اهتز المجتمع الاسرائيلي بصدمة مشابهة عندما تقدمت فئة زنجية من نحو ٤٠٠ شخص مؤمن باليهودية بطلب الاستيطان في إسرائيل . وظل مصيرهم سجالاً بين الادارات المختلفة فسمحت لهم السلطات أولاً بالسكن في النقب « تفادياً لاثارة تهمة التمييز العنصري » ، كما قال مراسل الساندي تايمس في تل أبيب ، ولكنها بادرت في الأخير بعد تفاقم عددهم إلى إخراجهم من البلاد « لعدم استطاعتهم إثبات صلاتهم بالشعب اليهودي » ^(١) .

(١) الساندي تايمس ، ٢١ / ١١ / ١٩٧١ .

بيد ان إسرائيل وجدت نفسها بعد سنوات قليلة جنباً إلى جنب في هيئة الأمم المتحدة والمحافل الدولية مع دول افريقية نالت استقلالها مؤخراً وأمسكت بزمام أمورها . وجاء ذلك أمام العزلة التامة التي عانتها تل أبيب خارج أوروبا وأمريكا . وقد أدى بها هذا الوضع إلى انتهاج سياسة انتهازية ترمي إلى التغلغل في الدول الافريقية الحديثة ونيل تأييدها دولياً . واضطر هذا الناطقين والسياسيين الاسرائيليين في تل أبيب إلى استعمال التقية والنفاق فيما يتصل بالشعوب السوداء .

وأثناء ذلك كشفت في مناسبات مختلفة عن هويتها السياسية الشريرة نحو أمانى- الشعوب الافريقية بوقوفها إلى جانب الأنظمة الرجعية كنظام هيلاسلاسي في اثيوبيا ومع المحاولات الانفصالية بتأييدها لحركة تشومبي التي استهدفت تمزيق الكونغو ثم حركة بيافرا التي هددت وحدة نيجيريا وساندت أخيراً قوات يونيتا اليمينية في انغولا . وكان لسوء حظ إسرائيل أن راهنت على الحصان الخاسر في جميع هذه التحركات .

وقد أدى فشل المناورات الاسرائيلية في افريقيا وتمكن الدول العربية من كسب افريقيا إلى اماطة اللثام عن حقيقة نظرة الصهاينة تجاه الشعوب السوداء . وطغت على الصحافة الاسرائيلية موجة من التشنيع ضد هذه الشعوب وحكوماتها الفتية . ومن أحسن الأمثلة على ذلك ما كتبه اهارون شمير في مقالة تهكمية نشرتها جريدة يديعوت احرونوت تحت عنوان «نزلوا من الاشجار تواءً ويجرؤون على انتقاد الصهيونية» . استهل الكاتب مقاله التي شبه بها الافارقة بالقردة بقوله :

« لقد استفاق بعض الناس من سباتهم فجأة وقرروا انهم شعوب ، وراحوا ينتقصون الصهيونية ! لا عيب عليهم في نزولهم من الأشجار في آخر الزمان ، بل على العكس . ولكن الشعوب كالأفراد تبدأ ترعرعها في روضة الاطفال ثم المدرسة وأخيراً الجامعة . وكما ستكون فضيحة إذا تعين أحد الخارجين من رياض الاطفال عميداً لجامعة ، كذلك سيكون الحال بل وأكثر فضاحة ، عندما تعتبر بعض الشعوب التي نزلت مؤخراً من الأشجار

نفسها زعيمة للعالم . » (٢) .

وأشار الكاتب إلى تصويت الدول الافريقية بجانب قرار الامم المتحدة بإدانة الصهيونية بالتمييز العنصري فوصف أبناءها بالبدائيين والأغبياء الذين راحوا يحجرون العالم إلى عصور ما قبل المدنية وتساءل « ومن أين للبدائيين فكرهم الخاص بهم ؟ ! » .

ولم تأت هذه الكلمات من وحي الساعة أو نتيجة انفعال عفوي فقد سبق وكما ذكرنا آنفاً ان صرح الدكتور روين ، المسؤول الصهيوني ، وقرر قبل سنين ان الافريقيين يحتاجون إلى ألف سنة للوصول إلى المستوى الحضاري الذي وصلت إليه أوروبا .

ولكن المحك الأساسي لموقف الصهيونية وإسرائيل من العرق الأسود والتمييز ضده . يكمن في موقف تل أبيب من افريقيا الجنوبية وعلاقاتها مع الأقلية البيضاء . ويجر هذا الموضوع إلى إثارة المقارنة بين الممارسات العنصرية في البلدين . وقد كتب بالفعل الكثير في هذا الشأن ونشير بالقارئ إلى الرجوع إلى الكتب المنشورة حول الموضوع . واستهوى ذلك أيضاً عدداً من المعارضين للسياسة العنصرية في افريقيا الجنوبية وقادهم بعد خروجهم منها إلى ميدان النزاع العربي الاسرائيلي حيث وجدوا نفس العلة تأخذ شكلاً آخر في جزء آخر من العالم . ومن هؤلاء نذكر بيتر هليز وبيتر هاينان وبامبلا فرغسون . وقد اعترفت الكاتبة الأخيرة بأنها إنما انجرت إلى دخول ميدان النزاع العربي الاسرائيلي بعد خروجها من افريقيا الجنوبية وذهابها إلى إسرائيل في زيارة كشفت لها الموقف العنصري في تلك الساحة . وقد أعرب الكثيرون عن اعتقادهم بتطابق كلا الكيانين من حيث التمييز العنصري تطابقاً كاملاً . ويبدو ، كما يلوح لهذا الكاتب ، ان في مثل هذا الاعتقاد شيئاً من المبالغة فالتمييز العنصري في افريقيا الجنوبية نظام شامل

(٢) ידיعوت احرونوت ، ١٤ / ١١ / ١٩٧٥ .

يقوم على الفصل التام بقوة القانون . ولا وجود في إسرائيل لمثل هذا التنظيم .

ومن مطالعة الوثائق والدراسات المكرسة للموضوع ، يخلص المتتبع إلى صورة تشير إلى علاقات مرتبكة في بادئ الأمر ، سرعان ما تطورت بعد الحرب العالمية الثانية وأخذت شكلها التحالفي الكامل في السنوات الأخيرة . من المعروف ان الجنرال سمتس ، الذي تولى شؤون افريقيا الجنوبية لسنين طويلة ، كان من أخلص المتحمسين للصهيونية ومن المساهمين في إصدار وعد بلفور أثناء اشتراكه في وزارة الحرب البريطانية (٣) . وقد تحدث سمتس عن التأييد الذي لقيته الصهيونية في افريقيا الجنوبية بين الحريين العالميتين فقال « قد تكون هناك بعض الشكوك والمخاوف ، بل وربما شيء من الاختلافات في وجهات النظر في بعض أنحاء العالم تجاه هذه الحركة العظيمة . ليس في افريقيا الجنوبية أي شيء من ذلك . هناك تجد كافة اليهود صهانية والمسيحيين مؤيدين للصهيونية . » (٤) .

ولكن من الظاهر ان الجنرال سمتس قد انجرف بولائه للصهيونية فبالغ في مقدار التأييد الذي كانت تلقاه في ذلك الجزء من افريقيا الكولونيلية . وربما كان يتحدث باسم الأقلية البيضاء الناطقة بالانكليزية والمتشبثة بالتاج البريطاني . المعروف ان حرب البوير شقت المستعمرين البيض في افريقيا الجنوبية وحولت الناطقين بالافريكانية (وهم من غير الانكلوسكسون) إلى مواطنين معادين للتاج البريطاني . وجعلهم هذا الموقف على طرفي نقيض من وعد بلفور كجزء من السياسة الامبراطورية البريطانية .

(٣) انظر L. Stein ، وعد بلفور ، لندن ، ١٩٦١ ، ص ٤٧٨ - ٤٨٣ .

(٤) نيوجوديا ، كانون الثاني ١٩٣٠ .

كما جر نفس الموقف كثيراً من البيض إلى التعاطف مع المحور والسياسة النازية المعادية للسامية . بيد ان هذا الموقف العاطفي بدأ بالتغير بتحدي الصهيونية لبريطانيا ومحاولة إخراجها من فلسطين في ١٩٤٧ / ١٩٤٨ . إذ وجد الافريكانيون في هذه المحاولة صدى لمحاولتهم في مطلع القرن للوصول إلى نتيجة مشابهة في افريقيا الجنوبية . وعلى الرغم من هذا التحول في الشعور ورغم مسارعة حكومة افريقيا الجنوبية كسابع دولة في العالم إلى الاعتراف بإسرائيل وقيام رئيس وزرائها بأول زيارة رسمية يقوم بها رئيس حكومة غربية إل تل أبيب ، فان العلاقات بين البلدين بقيت محصورة في حدود « الاحترام المتبادل » . بيد ان الاتحاد الصهيوني فيها ظل من أكثر الاتحادات الصهيونية تحمساً لاسرائيل . وجاءت كلمة سمتس بالنسبة ليهود افريقيا الجنوبية صادقة إلى حد كبير . ولا عجب في ذلك فان يهود تل أبيب ويهود جوهانسبرغ اشتركوا في مصير متشابه من حيث كونهم عنصراً أبيض في صراع مع شعوب ملونة محيطة به ومصممة على منازلته وتحديه . وبالفعل ذكر الدكتور لزي روبن ، اللاجئ اليهودي من افريقيا الجنوبية ان كثيراً من القوميين البيض « كانوا يرون انتصار اليهود على العرب بمثابة انتصار للبيض على الملونين » (٥) .

ومن ثم بزّ يهود افريقيا الجنوبية يهود العالم في نسبة التبرعات إلى الكيان الصهيوني . وانتقد رئيس الحاخامين فيها نظيره في بريطانيا على تهاونه وخوافه من إقامة مستوطنات جديدة في الضفة الغربية من الاردن وأعراب عن تأييده التام لجماعة غوش عمونيم المتطرفة (٦) .

بيد ان هذا التعاطف والتطابق لم ينعكس في أدبيات الطرفين على الصعيد النظري بصورة صارخة وفورية لأسباب معروفة . لقد كانت إسرائيل تحاول التغلغل كما ذكرنا في الدول الافريقية الناشئة ، وأي تصريح

(٥) انظر « اسرائيل وافريقيا الجنوبية » ، العالم الثالث ، بون ، ص ١٥ .

(٦) معاريف ٢٣ / ٥ / ١٩٧٦ .

من الصهيونية في تأييد التمييز العنصري في افريقيا الجنوبية يؤدي إلى القضاء على تلك المحاولة . غير ان من الجدير بالذكر ان صحيفة الزاينست ركورد ، صحيفة الاتحاد الصهيوني ، ظلت صامتة تماماً إزاء المسألة العنصرية ، الشغل الشاغل في ذلك الجزء من العالم . وقد صرح رئيس مجلس نواب الطائفة في مارس ١٩٥٨ انه والطائفة اليهودية ككل في وضع لا يمكنهم من إبداء رأي في موضوع التمييز العنصري هناك . وعندما التأم المؤتمر الصهيوني لافريقيا الجنوبية في تموز ١٩٥٨ امتنع كلياً عن بحث الموضوع في حين احتدم النقاش بشأن تمويل الثقافة اليهودية ونحو ذلك من « المسائل الخطيرة العديدة » (٧) .

وأعربت المنظمات الصهيونية عن الصمت البليغ إزاء مذبحه شاريفيل التي حركت حتى الأوساط الامبريالية لادانتها . وبعد أشهر قليلة تجرأ شارلس هوبنشتاين ، عضو مجلس نواب الطائفة ، إلى التصريح في لندن « ان أكثرتنا تؤيد سياسة الحكومة فيما يتعلق بالتمييز العنصري » (٨) . وأصدر مجلس نواب الطائفة قراراً في أواخر عام ١٩٦٢ دعا فيه الطائفة اليهودية إلى النشاط من أجل تفسير الوضع في افريقيا الجنوبية إلى العالم الخارجي . وتمخض القرار عن تعليقات في الزاينست ركورد وعلى السنة الناطقين الصهاينة تأييداً للسياسة العنصرية في افريقيا وتحذيراً للعالم الخارجي من مغبة الضغط على حكومة جوهانسبرغ . وقد أورد رتشارد ستيفنس أمثلة كافية من هذا النشاط (٩) .

ومن ناحية أخرى تحملت إسرائيل عبء المراوغة المستمرة في ضم صوتهما إلى صوت الرأي العام العالمي في إدانة النظام العنصري في افريقيا . ولكن

(٧) انظر زاينست ركورد ١٨ / ٧ / ١٩٥٨ .

(٨) اسرائيل وافريقيا الجنوبية ، ص ١٢ .

(٩) نفس المصدر ص ١٥ - ١٦ .

التعاون بين البلدين ظل يتطور نحو الخصوصية والتميز فأعطت حكومة جوهانسبرغ تسهيلات ليهودها في تحويل مساعداتهم المالية إلى إسرائيل والخدمة في القوات المسلحة الاسرائيلية ، مما يتجاوز حتى قوانينها الوطنية .

ولكن التطور الجذري في العلاقات برز بعد حرب ١٩٦٧ وتعمق تدريجياً بتعمق الصراع ضد العناصر البيضاء في الشرق الأوسط وأفريقيا وشعور هذه العناصر بالعزلة والخطر . وقد أورد بيتر هليز استعراضاً ضافياً للتعاون المتزايد بين الطرفين في الورقة التي قدمها للامم المتحدة في عام ١٩٧٤ (١٠) . ويعطي هذا التقرير القيم معلومات غزيرة عن النشاط المحموم الذي تلا حرب حزيران اعتباراً من تدفق الدم الافريكاني لجرحي الحرب الاسرائيليين إلى رفع القيود عن التحويل الخارجي إلى إسرائيل فتأسيس العديد من المؤسسات والشركات على أصعدة التعاون التجاري والعسكري والتقني .

في أوائل عام ١٩٥٨ انطلق صحيفة الزاينست ركورد على خلاف عاداتها فعالجت الموضوع العنصري من طرف خفي قائلة ان اسرائيل تعطي مثلاً لبقاء العنصر الأبيض في افريقيا الجنوبية وان اليهودي والافريكاني متشابهان في الوضع ، ويتحمل كلاهما مسؤولية الحفاظ على عرقيهما . وأكدت الصحيفة - وهي لسان حال الاتحاد الصهيوني - ان هذا الرأي هو ليس رأي اليهود فقط بل يشاركهم فيه الاغيار البيض وصحافتهم في افريقيا الجنوبية (١١) . وردت صحيفة دي برغر الافريكانية هذه التحية بمثلها في ٢٩ مايس ١٩٥٨ بقولها :

« تشترك إسرائيل وافريقيا الجنوبية بمصير واحد . وكلتاها منشغلة في صراع من أجل البقاء ، وكلتاها في اصطدام مستمر مع الأكثرية الساحقة في

(١٠) بيتر هليز ، اسرائيل وافريقيا الجنوبية ، تطور العلاقات ١٩٦٧ - ١٩٧٤ ، من منشورات العمل الصهيوني ، لندن ، ١٩٧٥ .

(١١) زاينست ركورد ، ٣ / ١ / ١٩٥٨ .

هيئة الأمم المتحدة . وكلتاهما قاعدة يمكن الاعتماد على قوتها ضمن المنطقة ، ولولاهما لسقطت هذه المنطقة في فوضى معادية للغرب . ان من مصلحة افريقيا الجنوبية ان تنجح إسرائيل في احتواء اعدائها . . . إن القوى المعادية للغرب قد ألفت بإسرائيل وافريقيا الجنوبية في أحضان بعضهما البعض لتشكلا مجموعة من المصالح المشتركة التي يجب ان تغذى ولا تنتقص » .

وقد رددت المصادر الاعلامية في البلدين هذه النعمة في مناسبات مختلفة . وفي فترة عسيرة تأزمت خلالها العلاقات بين البلدين ، أعرب الدكتور فروود ، رئيس حكومة افريقيا الجنوبية ، عن اللقاء المصيري بين الطرفين بلهجة أخرى أكثر بلاغة وصراحة ، « ان اليهود قد انتزعوا إسرائيل من العرب الذين عاشوا فيها ألف سنة . وعلى هذا الأساس انني اتفق معهم . إسرائيل هي كافريقيا الجنوبية ، دولة تقوم على التمييز العنصري » (١٢) .

ولاعطاء مثال على التطابق بين النظامين قام الجنرال مردخاي هود بزيارة لافريقيا الجنوبية لإلقاء محاضرات في كلية الاركاب عن الحرب الخاطفة كما زاولتها إسرائيل في حزيران ١٩٦٧ . وبعد هذه الزيارة بقليل ، تحدث وزير دفاع افريقيا الجنوبية فهدد زامبيا بإعطائها درساً على غرار ما تعطيه إسرائيل للعرب بغاراتها الخاطفة على معسكراتهم إذا شاءت زامبيا ان تحتدي حذو العرب وعملياتهم الارهابية .

ومن الزيارات المريبة التي تبودلت بين الطرفين في هذا الاطار ، زيارة الجنرال فان دنبرغ ، رئيس مكتب الأمن للحكومة افريقيا الجنوبية إلى تل أبيب في أغسطس ١٩٧٣ . وقد صرح فان دنبرغ لجريدة يديوت اهرانوت الاسرائيلية قائلاً « لقد أخبرت رئيس الوزراء بعد عودتي بانه طالما بقيت إسرائيل في الوجود بقي الأمل في أيدينا . وإذا أزيلت إسرائيل

المهتدين

(١٢) راند دبلي ميل ، ٢٣ / ١١ / ١٩٦١ .

- لا سمح الله - فستصبح افريقيا الجنوبية مهددة بالزوال . « (١٣) . وقد رددت مصادر اخبارية مختلفة أنباء المساعدات التي قدمتها جوهانسبرغ إلى تل أبيب أثناء حرب تشرين وتضمنت مد إسرائيل بطائرات الميراج والمتطوعين (وقع أحدهم أسيراً في أيدي القوات السورية) والأموال .

وبتصعيد النضال ضد الأنظمة والممارسات العنصرية ، تصاعدت الحملة في السبعينات لتطبيق المقاطعة والعقوبات الاقتصادية ضد هذه الأنظمة والمؤسسات العنصرية ووقعت حكومة الأقلية البيضاء في روديسيا ضحية لمثل هذه العقوبات العالمية . وتصاعدت الحملة لتوسيع مثل هذه العقوبات لتشمل افريقيا الجنوبية من ناحية واسرائيل من ناحية أخرى . وكانت اسرائيل بالطبع قد عانت من المقاطعة العربية منذ تأسيسها ، ولكنها استطاعت ان تشق لنفسها طريقاً إلى الدول الأخرى . بيد أن مثل هذا الطريق أصبح مهدداً في السنوات الأخيرة بالأكثرية المطلقة لدول العالم الثالث والعالم الاشتراكي واحتمال تضافرها في التصويت بفرض المقاطعة الاقتصادية على الكيان الصهيوني .

وألقت هذه المخاوف كلا من اسرائيل وافريقيا الجنوبية في معسكر واحد من المصالح والمخاوف المشتركة والتأهب لمعاونة بعضهما البعض في مثل هذا الموقف . وكشفت تل أبيب عن عزمها على خرق أي حظر يفرض على العنصريين بتحديها للعرف الرياضي الذي أصبح سائداً في دول العالم برفض المباريات الرياضية التي تشترك فيها افريقيا الجنوبية ، فأوفدت تل أبيب مختلف فرقها الرياضية للمباريات في افريقيا الجنوبية واستقبلت فرق هذه الدولة في اسرائيل . ويقال مثل ذلك في الميدان الثقافي حيث قامت فرقة إسرائيل الفلهارمونية بخرق المقاطعة الموسيقية بزيارة لجوهانسبرغ والعزف فيها بعد ١٨ سنة من المقاطعة العالمية المستمرة .

(١٣) هليز ، ص ١٠ ، ٢٣ .

وتجسم هذا الخطر بصورة أكثر بالنسبة لتل أبيب نتيجة فرض الدول الغربية - فرنسا وبريطانيا بصورة أساسية - حظر تصدير الأسلحة إلى إسرائيل ودول المواجهة العربية ، وتحول أمريكا من الناحية الأخرى إلى التضيق على إسرائيل في حجب المساعدات العسكرية عنها في عهد الرئيس فورد سعياً وراء ارغامها على قبول اتفاقيات الانسحاب التدريجي من سيناء في ١٩٧٥ . وقد استدعى ذلك من إسرائيل البحث عن حليف أقوى شكيمة من الدول الغربية ولا يخضع تسليحه إلى القيود المفروضة على الأسلحة الموردة من أمريكا ، ويتجاوب بعين الوقت معها في موضوع السياسة العنصرية التي تقف سبباً وراء إجراءات الحظر والمقاطعة التي تدعو لها الدول الافراسيوية .

وكانت افريقيا الجنوبية قد قامت بالفعل بمثل هذا الدور فنصبت جسراً جويّاً لمد القوات الاسرائيلية بالأسلحة وقطع الغيار الضرورية أثناء منع الجنرال ديغول تزويد إسرائيل بذلك . وتروي مجلة الايكونومست بأن هذا التعاون العسكري اكتسب طابعه الرصين في أوائل عام ١٩٧٥ عندما طلب كيسنجر من تل أبيب إرسال قواتها لمعاونة قوات افريقيا الجنوبية في محاربة الحركة الشعبية في انغولا . وقد استجابت تل أبيب للطلب بإرسال معدات وخبراء في مقاومة حرب العصابات ، وأعطاهما كيسنجر مقابل ذلك اذنّاً بالتعاون العسكري التام مع جوهانسنبرغ . وأخذ هذا التعاون صيغته الرسمية بزيارة رئيس وزراء افريقيا الجنوبية لتل أبيب وتوقيع عدد من الاتفاقيات العسكرية والاقتصادية في مايس ١٩٧٦ . وقد نشرت المجلة البريطانية تلخيصاً شاملاً للأشكال والأبعاد التي أخذها هذا التعاون (١٤) .

ويكفي ان نشير إلى أن صادرات اسرائيل إلى افريقيا الجنوبية ارتفعت من أربعة ملايين دولار في عام ١٩٦٧ إلى ٨,٣ مليون دولار في ١٩٧٢ ثم ٣٥ مليون دولار في ١٩٧٥ . وأوردت مجلة العالم الثالث عرضاً تفصيلياً ومؤيداً

(١٤) الايكونومست ، ٥ / ١١ / ١٩٧٧ .

بالوثائق لتفاصيل التعاون العسكري بين الطرفين .

وقد حدا هذا التضامن بين النظامين العنصريين بعض الدول الافريقية إلى قطع علاقاتها بإسرائيل ومنها حكومة زائير . وبعين الوقت اضطرت تل أبيب إلى الكشف عن وجهها الحقيقي في الجمعية العامة للأمم المتحدة بالامتناع عن التصويت بشأن القرارين ٣١٥١ د و ٣١٥١ هـ والتصويت ضد القرار ٣١٥١ ز والتغيب عن الحضور عند التصويت ضد القرارات الأخرى المتعلقة بإدانة التمييز العنصري في افريقيا الجنوبية . وبذلك خرجت إسرائيل عن موقفها الانتهازي الذي تبنته في السابق بالتصويت نفاقاً مع الدول الافريقية في هذا الموضوع . ومن الواضح ان نصيحة صحيفة الجويش هيرالد الصهيونية التي وجهتها إلى الحكومة الاسرائيلية كانت أكثر واقعية وحصافة عندما لامت المسؤولين في تل أبيب على الوقوف ضد افريقيا الجنوبية طمعاً بصداقة الدول الافروآسيوية المشكوك فيها بالنسبة لإسرائيل (١٥) .

والواقع ان التجاوب بين النظامين جاء أمراً محتماً وطبيعياً لم يحل دون تكامل صورته للعيان غير الاعتبار الدبلوماسية ورغبات إسرائيل في كسب العالم الثالث . لقد قام كلا النظامين على الأساس الكولونيالي الذي أشرنا إليه سلفاً ، والذي يؤدي بالضرورة إلى الايمان بالعنصرية وممارسة التمييز العنصري . لقد تأسس كل من النظامين عبر هجرة أوربية بيضاء إلى العالم الافروآسيوي تحت مظلة من الحراب الاستعمارية ورعاية التاج البريطاني . وتمركز المهاجرون أولاً في نقاط استراتيجية من البلاد ثم انطلقوا منها إلى إزاحة السكان الاصليين بالعنف أنا وبالاغراء أنا آخر في حركة توسعية دائمة . وبني كلا النظامين على أساس فصل المجموعتين البشريتين وإعطاء إحدهما حقوقاً وامتيازات فوق الأخرى ، ثم السعي أخيراً إلى تقسيم البلاد إلى قسم خاص بالمجموعة المتميزة وقسم يعطى للسكان

(١٥) إسرائيل وافريقيا الجنوبية ، ص ١٤ .

الأصليين ليعيشوا فيه عيشتهم الخاصة على طريقتهم الخاصة ويتأخرهم الموروث تحت الهيمنة العسكرية والسياسية للمجموعة المتميزة .

وفي كلتا الحالتين نجد ان الهجرة البيضاء قامت أساساً على العمل في الزراعة ، وهو الميدان الذي تمسك به الافريكانيون على عكس الانكلوسكسونيين الذين توجهوا إلى الصناعة والمال والادارة . وكما التفت العنصرية في إسرائيل حول مزارع الكبوتز ، التفت في افريقيا الجنوبية حول مزارع الافريكانا . وانحدر رواد كلا المدرستين من التمييز العنصري ، الصهيونية والافريكانية من أوروبا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، العصر الذهبي للعنصرية الاوربية مما أتينا على ذكره مسبقاً .

ومن الطريف ان نجد أيضاً ان كلتا المجموعتين من العنصريين ، الافريكانا في افريقيا الجنوبية والصهاينة في فلسطين ، تشبثان بالعهد القديم كوثيقة تعطيها منزلة سبق والتميز ، فالمعروف عن الافريكانيين انهم وقفوا ضد تحرير العبيد على أساس أنها تتعارض مع تعاليم العهد القديم وأكدوا على الاصحاب التاسع من سفر التكوين الذي يروي قصة سام وحام (جد الشعوب السوداء) ولعنة نوح على ولده حام بأن يصبح هو وأحفاده خدماً لأحفاد سام .

ومع ذلك فلا بد من وجود فوارق بين العنصريتين ، الصهيونية والافريكانية . وربما كان من أهم هذه الفوارق ان العالم فطن بسرعة وسهولة إلى شرو العنصرية في افريقيا وظل ساهياً عن شروها في الشرق الأوسط . ويرجع القسط الأكبر من هذه الحالة الشاذة إلى البراعة والسيارة الاعلامية الصهيونية ، من ناحية والأشكال المستترة التي تتخذها التمييز العنصري في إسرائيل من الناحية الأخرى .

الفصل التاسع

مسألة اليهود الشرقيين

لا شك أن موقف السلطات الصهيونية من اليهود الشرقيين يعطي أبعاداً ومفاهيم غنية بالمدلولات ، فالمتوقع من العنصرية الاوربية ان تميز ضد الملونين الذين يشملون اليهود الشرقيين . ولكن العنصرية الاوربية أكدت بنفس الوقت على وحدة كافة اليهود ، الشرقيين والاوربيين ، وانتمائهم إلى عرق واحد . هذا هو قوام الحركة المعادية للسامية . وعليه فبغض النظر عن الاعبارات العملية والاعلامية والايديولوجية ، نجد العنصريون الصهاينة أنفسهم بين قطبين متناقضين ، وظل هذا التناقض يعكر صفو أولي الأمر في تل أبيب ويثير الاضطراب في سياساتهم .

كانت هناك أولاً الاعبارات العملية المتعلقة بالحاجة إلى العنصر السكاني لترجيح الكفة اليهودية من حيث العدد والاشغال الفوري للاحياء والمنشآت التي تركها اللاجئون العرب . وبالنظر لتردد اليهود في اوربا الغربية وامريكا في الهجرة إلى الكيان الصهيوني وتعذر هجرتهم من أوربا الشرقية ، فقد اضطرت الحركة الصهيونية إلى شن حملة محمومة للمجيء

باليهود من أي لون كان ومن أي مصدر كان . هكذا بدأت عملية تهجير اليهود من العراق واليمن والمغرب . ومن المحتمل جداً أنهم ربما بقوا في أماكنهم حتى الآن لو ان تل أبيب استطاعت الحصول على الثلاثة مليون يهودي من أوروبا الشرقية ومثل ذلك العدد من الغرب . ولكن الاقدار شاءت غير ذلك واضطرت إسرائيل إلى تحمل أكثر من مليون يهودي عربي .

وقد أصيب الصهاينة الاوربيون بصدمة عند مواجهتهم اليهود الشرقيين واكتشافهم ان هؤلاء اليهود لا يختلفون في غير الدين عن العرب ، محل كره واحتقار الصهاينة ، بل كانوا في كثير من الحالات أكثر تأخراً من الفلسطينيين العرب . ولتعليل هذه الظاهرة اضطروا إلى إرجاع ذلك إلى تدهور عام أصاب هؤلاء اليهود الشرقيين نتيجة الظروف السيئة التي أحاطت بهم عبر السنين في العالم الافرواسيوي . وبالطبع أجبر الصهاينة بذلك على الخروج عن إيمانهم العنصري ، كما اضطروا سواهم من العنصريين في الحالات الأخرى ، أمام التناقضات الحتمية التي تواجه الايديولوجية العنصرية ، اضطروا هنا إلى ترجيح البيئة على رابطة الدم وارتقاء النسل .

الطريف في الموضوع هو ان الصهاينة لم يعتبروا اليهود الشرقيين الذين يشكلون الأكثرية في إسرائيل (نحو ٦٠ ٪ من مجموع اليهود) ويرتبطون بتاريخ فلسطين والمنطقة السامية أكثر من الاوربيين هم الأساس للشخصية اليهودية الحقيقية واليهود الاوربيين هم الشذوذ عنها الناتج عن بيئة أوروبية مختلفة . بل ساروا على عكس هذا المنطق واعتبروا أنفسهم بسيمائهم وتقاليدهم الاوربية وسحتهم البيضاء وشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء هم الأساس واليهودي الشرقي والفلسطيني هو الشذوذ . وقد بينا في الفصل الأول كيف قرر الدكتور روبين ان اليهود الشرقيين لم يعودوا يمثلون الشخصية اليهودية أو يمكن تمييزهم عن سواهم من المجتمع الشرقي وبقي اليهود الاوربيون بنتيجة الضغوط التاريخية يحملون هوية الشخص اليهودي ويتميزون بفضلها بارتقائهم فوق مستوى بقية المجتمع الاوربي .

ومن الظاهر ان الصهاينة قد عكسوا بذلك العرف التاريخي الذي درج على تسمية يهود العالم الاسلامي بمجرد كلمة « اليهود » وتسمية يهود العالم الاوربي بـ « اليهود الاوربيين » ، أو كما سموا في القرون الوسطى بالاشكنازيين . وكانت هذه الكلمة تعبر عن شيء من الاستهجان والاحتقار وتنطوي على معنى البربرية . وكان موسى بن ميمون المشار إليه في أول الكتاب قد أطلق عليهم صراحة كلمة « البرابرة الاشكنازيين » وتحدث عنهم باستهجان قائلاً انهم جهلة في العلم ويأكلون طعامهم بهمجية ويتكلمون بصوت عال ويتصرفون بسلوك سيء . وقد اعتقد بن ميمون بأن سوء خلقهم وعقلهم يرجع إلى كثرة أكلهم للثوم والأبخرة التي تتصاعد منه إلى الدماغ فتفسد حاله (١) .

غير ان الصهاينة قلبوا الصور التاريخية على عقبها تماشياً مع الاتجاه الكولونيالي الغربي ووقائع العصر الاستعماري . أصبح اليهودي الشرقي هو العبد الذي تنوء به اليهودية وأعرب زعماء الصهيونية عن تبرمهم بهذا العبد وكان بياليك ، الشاعر الصهيوني ، قد عبر عن مدى مقتته ليهود الشرق بقوله انه إنما يكره العرب لأنهم يذكرونه باليهود الشرقيين . والمعروف عن بن غوريون انه ظل يتمسك بتحمل صريح ضدهم ، واثار خلال الحملة الانتخابية لعام ١٩٦٥ ضجة كبيرة بانتقاصه للقدرات الثقافية والعادات الاجتماعية لليهود المغاربة إلى حد تسبب في وقوع معركة بالأيدي في ميناء اشدود عند زيارته للميناء الذي تواجد فيه عدد من المغاربة . وسعى الزعيم الصهيوني إلى مقاضاة جريدة لا مرهاف لإعادة نشرها كلماته المحرجة في هذا الصدد (٢) ولا تعتبر مثل هذه الآراء مفاجئة أو غريبة عندما نتذكر كلمات آرثر روبين التي استشهدنا بها سابقاً فيما يتعلق بارتقاء اليهود الاشكنازيين على اليهود السفارديين (الشرقيين) في الذكاء والنشاط والقدرة العلمية

(١) ميدل ايسنت انترناشنال ، اليهود الشرقيون ، تشرين الأول ١٩٧١ .

(٢) جويش اوبزرفر ، تشرين الثاني ، ١٩٦٥ .

بنتيجة عملية الانتخاب الطبيعي الطويلة التي سار عليها الاشكنازيون في الزواج عبر العصور .

وبينما اعترفت القيادة الصهيونية بتأخر اليهود الشرقيين وسوء أحوالهم السكنية والاقتصادية والوظيفية فانها راحت تؤكد على مرحلة هذه الأحوال وتبشر بقرب زوالها بالثقيف والاصلاح ، ومن ثم زوال التحامل الاجتماعي ضد الشرقيين . بيد ان ملاحظات المراقبين تشير في كثير من الأحوال إلى نتائج معاكسة ، فمن المعروف ان أكثر هؤلاء اليهود الشرقيين هاجر إلى إسرائيل في النصف الأول من هذا القرن ، ومنهم من ولد ونشأ فيها . ومع ذلك فقد وجد ان ٢٣٠,٠٠٠ من البالغين منهم ما زال أمياً في عام ١٩٦٦ (٣) . وقد عالج هذا الجانب التعليمي الدكتور ابراهام شمسكي فاعترف بأن أي تقدم محسوس لم يتحقق في تثقيف أولاد اليهود الشرقيين وعزا ذلك إلى المناهج الدراسية القائمة على الذهنية الاشكنازية التي اعترف الباحثون والتعليميون بكونها السبب الرئيسي في فشل المحاولة (٤) .

ولملاحظة أثر هذا العامل في تحطيم معنوية أولاد اليهود الشرقيين وعزيمتهم على التعلم نذكر ان ٥٥ ٪ من مجموع التلاميذ اليهود المبتدئين في المدارس في عام ١٩٦١ جاؤوا من عوائل شرقية ولكن ٤٠ ٪ فقط بقي حتى السنة الأخيرة من الدراسة الابتدائية ، و ٢٧ ٪ فقط حصل بالفعل على الشهادة الابتدائية . وانخفضت هذه النسبة إلى ٢٥ ٪ في بدء الدراسة الثانوية و ١٣ ٪ في انائها ، حتى إذا وصلنا الدراسة الجامعية وجدنا ان ٥ ٪ فقط جاء من عوائل شرقية و ٢ ٪ فقط حصل بالفعل على شهادة عالية (٥) . وقد لاحظ الكاتب الذي أورد هذه الأرقام ان السلطة توجه عنايتها إلى

(٣) جويش اوبزرر ، ٢٥ شباط ١٩٦٦ .

(٤) اصطدام في الثقافة : مشكلة تعليمية ، نيويورك ، ١٩٥٥ .

(٥) G . Friedmann ، نهاية الشعب اليهودي ؟ ، لندن ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٧ .

الجيش والصناعة والزراعة لا إلى التعليم وإزالة الفوارق بين الشرقيين والغربيين .

وذهب نفس الكاتب إلى أن هذه الفروق آخذة بالتعاضد لا بالزوال ، وانعكس ذلك في مدى التحامل الاجتماعي الذي اعترف به بالفعل الشباب الاشكنازي ضد الشرقيين والذي ارتفع من ٥ ٪ في عام ١٩٥٠ إلى ٩ ٪ في عام ١٩٥٣ و ٣٤ ٪ في عام ١٩٥٩ . وعزا كبار أساتذة الجامعة التحلل الأخلاقي بين تلامذتهم إلى اختلاطهم باليهود الشرقيين ^(٦) .

والحقيقة إن من الممكن تفسير التأخر الثقافي لليهود الشرقيين وتلكؤهم في التحصيل المدرسي والجامعي بنفس الأسباب التي لوحظت في كافة المجتمعات المعاصرة بالنسبة للفئات الفقيرة والمحرومة . الحرمان يورث الحرمان ويترك السلطة أمام الدائرة المفرغة تفتش عبثاً عن طريق لخلق ظروف جديدة تقطع هذه الدائرة وتبعث في نفوس صغار المحرومين الهمة للتنافس وتحسين الحياة . قد يبرر مثل هذا التفسير فشل السلطات الصهيونية في هذا الميدان ولكنه تفسير يؤدي إلى تقويض المنطلق العنصري الذي انبثقت منه الفكرة الصهيونية . وتبقى هناك مسألة الاجراءات التي يفترض اتخاذها لخلق الظروف الجديدة الكفيلة بانعاش المحرومين والتي عمدت بالفعل كثير من الدول المتطورة إلى تبنيها للتغلب على هذه المشكلة . وفي هذا المجال ساد اعتقاد في إسرائيل بأن الجيش والخدمة الطويلة فيه يستطيع خلق أناس جدد من شباب اليهود الشرقيين ، ولكن النتائج لم تؤيد مثل هذا الرأي وتبين ان القوات المسلحة الاسرائيلية أشد في التمييز ضد الشرقيين من المؤسسات المدنية والتعليمية كما سنرى بعد قليل .

ويتضح لنا ان الموقف ضمن المجموعة اليهودية ذاتها في إسرائيل

(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٩ .

لا يختلف في الكثير عن أمثاله من مواقف التمييز العنصري في الدول الغربية اللبرالية ومستعمراتها في الأمس . وعلى غرار ما جرى في هذه الجهات ، نجد المجتمع الاسرائيلي منقسماً حسب اللون والأصل إلى احياء ومدن تكاد تكون منفصلة عن بعضها البعض ، يحيا أفرادها حيوات متباينة في المستوى الاقتصادي والاجتماعي وطراز العيش ومصاعب العمل . ويحمل كل منهم هواجس ومشاعر متعصبة ضد الآخر تعطي صورها في كثير من التعابير والتقاليد الجارية . فنجد الشرقيين مثلاً يطلقون على الاشكنازيين الكلمة التهكمية « فزفز » والاشكنازيين يطلقون على الشرقيين كلمة الاحتقار « حور » (أسود) .

ومن الجدير بالنظر ان الانقسام المكاني للسكان لم يحدث نتيجة لتطور تاريخي قديم أو ظروف عفوية أو اقتصادية أو طبيعية ، كما هو الحال بالنسبة لأكثر الاحياء الملونة في العالم ، في باريس أو لندن أو نيويورك ، وإنما حدث في اسرائيل في إطار تخطيط منظم وإرادة مسبقة . وقد قام هذا التخطيط أساساً على اعتبار المهاجرين اليهود من صنفين ، صنف « المادة البشرية الثمينة » التي شملت المهاجرين البيض وصنف « المادة البشرية الرديئة » التي شملت المهاجرين الافرواسيويين . وقسمت الاحياء السكنية والوظائف والاعمال على هذا الأساس وبينما سيق المهاجرون من البلدان العربية إلى مخيمات ومعسكرات ~~خفيفة~~ عند وصولهم ، استقبل المهاجرون الروس ، كما ذكرت الصحافة العالمية ، على السجاجيد الحمراء ، وأعطيت لهم فور وصولهم أحسن الشقق والبيوت العصرية إلى حد أثار حفيظة بقية السكان . وبقي الشرقيون يعانون الظروف السكنية السيئة في الاحياء الخربة من فلسطين وفي المدن الاسكانية التي بنيت بشكل متواضع خصيصاً لهم .

وقد اعترفت الصحافة الصهيونية بان أكثرية المهاجرين من البلدان العربية أصبحوا يعيشون « عيشة الكفاف أو دون ذلك المستوى » وتسكن عوائلهم التي بلغ أعضاؤها ثمانية أشخاص أو أكثر في شقق لا تتجاوز

مساحتها ٢٢٥ قدماً مكعباً (نحو عشرين متراً مربعاً) (٧) .

وقد أورد جورج فريدمان ، الكاتب اليهودي الفرنسي ، أمثلة عديدة من التمييز ضد الشرقيين ، ولاحظ انه حيثما دخل مطعماً راقياً وجد رئيس الخدم ورئيس الطباخين من البيض ويعمل تحت امرته باحتقار الخدم من اليهود الشرقيين . واكتشف فريدمان ان اليهود الشرقيين لا يكونون غير ٤, ٥ ٪ من كبار الموظفين و ١, ٣ ٪ من أصحاب المهن وأعطى كل ذلك اليهودي الشرقي شعوراً بعقدة نقص « وان عقدة النقص هذه حقيقة وتغذيها باستمرار الصورة التي يقدمها عنه الغربيون كشخص كسول وغير كفؤ وغير متمدن إلى حد لا يمكن معالجته » (٨) .

ويتلاشى وجود اليهود الشرقيين في القمم العليا من السلطة فلم يكن مثلاً في الكنيسة غير ١٣ يهودياً شرقياً من مجموع ١٢٠ نائباً في عام ١٩٦٩ . ولا يوجد أي ضابط برتبة عليا أو بمسؤولية حساسة من اليهود الشرقيين . وأثيرت هذه المسألة بالنسبة لضباط القوة الجوية وطيارها . وكان جواب القيادة المسؤولة عن انتقاء الضباط انها لن تلتفت لأي اعتبار غير القدرة الصرفة على هذا النوع من العمل . وهنا برزت نظرية جديدة تنسف الفكرة العنصرية من أساسها وتوضح التناقض المتأصل فيها ، كما لاحظناه في مناسبات سالفة في هذا البحث . هنا تقدم منظرو الكيان الصهيوني إلى ابتداء شرط انحدار الشخص من ثلاثة أجيال استعملت الكهرباء في بيوتها ليكتسب صفة المدنية أو القدرة على المعالجة العلمية للأمور . الشرط لدخول اسرائيل والاستيطان فيها يقوم على انحدار الشخص من أربع أمهات يهوديات والشرط لدخول كلية الطيران يقوم على انحدار الشخص من ثلاثة آباء استعملوا الكهرباء في بيوتهم .

وتتجلى من الموقف ثلاث مجموعات بشرية ، المجموعة العربية

(٧) جويش اوبزرفر ٢٥ / ٢ / ١٩٦٦ .

(٨) فريدمان ، ص ١٤٥ .

ومأواها - كما قال مثير ياري ، الأمين العام لحزب المابام ، في مؤتمر الحزب لعام ١٩٦٣ - الأكواخ ، والمجموعة اليهودية الشرقية وحصتها الخرائب المكتظة ، والمجموعة اليهودية الاوربية التي تسكن الاحياء العصرية من تل أبيب والقدس والمراكز القشبية . وتتسلسل أعباء الأزمات على المجموعات الثلاث بهذا التسلسل . وقد اضطر هذا الوضع كثيراً من المثقفين وأبناء الطبقة المتوسطة من اليهود الشرقيين إلى ترك اسرائيل والهروب إلى مراكز الدول الغربية ولا سيما باريس وهمبورغ ولندن ونيويورك . وقد أكد المثقفون منهم ان السلطات الاسرائيلية لم تعطهم أي فرصة لاثبات ثقافتهم وتعليمهم وكفاءتهم . ولا شك ان النجاحات التي سجلوها في هذه العواصم الثقافية الكبرى من العالم لتثبت هذه القدرات والمؤهلات (التي اكتسبوها في بلدانهم العربية الأصلية) التي أصرت السلطات الاسرائيلية على تجاهلها .

وربما تعرضت فئة اليهود اليمانيين إلى أكثر من نصيبها من هذا التمييز . فمن المعروف ان الاشكنازيين كانوا يدفعون في عهد الانتداب أجوراً أقل للعمال اليمانيين مما كانوا يدفعون لآخوانهم البيض . ومن الفضائح التي أثبتت في إسرائيل مسألة الأطفال الذين جيء بهم من اليمن في عملية الهجرة المسماة بعملية البساط السحري ثم بيعوا إلى العوائل الأمريكية لغرض تبنيتهم . وذكرت الجويش كرونكل ان الشرطة الاسرائيلية لم تبد أي اهتمام بشكاوى ذوي أولئك الأولاد الذين اختفوا فجأة من معسكرات المهاجرين الجدد (٩) . ومن الفضائح البليغة الأخرى قصة العلاقة الجنسية بين موشي ديان واليشيفا زيزس . والبليغ فيها هو ان مغامرات رجل الحرب مع العديد من الفتيات تعتبر أموراً معروفة تماماً في تل أبيب ولا أحد يعابها ، ولكن قصة اليشيفا هزت الأوساط العامة بعد ان اكتشفوا أن أباهما كان عراقي الأصل فاعتبروا ذلك خطراً أمنياً (١٠) . وأبلغ

(٩) جويش كرونكل ، ١٧ / ٢ / ١٩٦٧ .

(١٠) ساندي بيبيل ، ٢٠ / ٢ / ١٩٧٢ .

من ذلك أن موشي ديان رفض الزواج باليشيفا رغم علاقته الطويلة معها وطلاق زوجته بسببها . ويجرنا ذلك إلى المعيار العنصري الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو الزواج . ومن المعروف هنا ان اليهود الشرقيين ما زالوا يتزاوجون فيما بينهم والغربون فيما بينهم وقلما اختلط الطرفان .

وقد أدت الأحوال السيئة التي وجد اليهود الشرقيون أنفسهم فيها إلى انتشار حركة الفهود السوداء بين شببتهم واندلاع هذه الحركة في المظاهرات العنيفة التي تحدت السلطات الحاكمة وجلبت الردود القاسية من الشرطة في مايس ١٩٧١ . وقد هزت أحداثها الأوساط العالمية وفاجأتها بحقائقها .

وإذا كان الفن مرآة الحياة ، فان الكيان الفني لاسرائيل يكشف بكل وضوح عن التجاهل الذي يكاد يكون تاماً للتراث الذي حمله اليهود الشرقيون ، ومن ذلك مثلاً فن موسيقى المقام العراقي الذي ارتبط تقليدياً وتاريخياً بالطائفة اليهودية البغدادية وعبثاً حاول أبناء هذه الطائفة من الموسيقيين إيجاد طريق لهذا الفن وسط الكيان الصهيوني . ومن رأي هذا الكاتب ان نظرة السلطة الصهيونية وسلوكها في هذا الميدان يكشف عن مقدار عنصريتها على نحو أجلى وأبلغ من أي ميدان آخر. حيث يتعلق بالموسيقى ، نجد جداراً شامخاً يفصل بين شعبين في انفصال تام . اليهود الشرقيون يستمعون إلى محطات الاذاعات العربية حيث تنساب أغاني أم كلثوم وسليمة مراد وناظم الغزالي ، واليهود الغربيون يستمعون إلى محطات ميونيخ وبرلين وموسكو ولندن حيث تعزف موسيقى بتهوفن وموتزارت ، أو تغنى أغاني الفس بريستي والخنافس . ورغم ان الشرقيين هم أكثرية السكان ، ولا سيما عندما نضيف إليهم الفلسطينيين ، فان الموسيقى والفنون الرسمية للكيان الصهيوني هي الفنون الغربية . وعلى هذا الأساس تشترك إسرائيل في مباريات الأغنية الاوربية تحدياً لأبسط حقيقة جغرافية .

ولم تبذل السلطات أي جهد يذكر لصيانة هذا التراث الفني الشرقي أو تنميته أو احتضان الفنانين المبدعين فيه وتشجيعهم بوسائلها العالمية الانتشار ونفوذها في العالم الأوسع . وما حدث من اهتمام فيه جاء عن طريق

الاهتمام الفولكلوري كما هو الحال بالنسبة لفنون البدو والدروز
والفلسطينيين عموماً . وإذا شئنا ان ننظر بتسامح تجاه السلطات الصهيونية
فيمكننا ان نقول بأن هذه السلطات تنتظر في أحسن الأحوال ان ينزع اليهود
الشرقيون ثيابهم القديمة وينسوا على مرور الزمن كل ما تعلموه في البلدان
العربية من تراث واكتسبوه من آداب وعادات وأخلاق ويتحولوا إلى نسخة
كاربون من اليهودي الاشكنازي .

المفروض في الدول الديمقراطية ان تعكس إذاعاتها وصحافتها ميول
واهواء سواد الجمهور بغض النظر عن قيمتها أو تفاهتها . هكذا خصصت
إذاعة لندن ثلاث قنوات للموسيقى الرائجة وقناة واحدة للموسيقى
السمفونية . ان تجاهل الاذاعة والصحافة الاسرائيلية لميول الأكثرية الشرقية
ومزاجها وعاداتها لحقيقة تضع علامة استفهام أخرى على الادعاء الشائع
بدمقراطية اسرائيل .

خاتمة

لا شك ان باستطاعة المدافعين عن الصهيونية ان يردوا على الكثير مما ورد في هذا البحث من الناحيتين النظرية والتطبيقية . فمن الواضح ان هذا الكتاب قد اختار وثائقه وحججه على نحو يتلاءم مع آرائه ، وبإمكان المفكر الصهيوني ان يقوم بعملية اختيار مقابلة يورد فيها من النصوص ما ينقض حجة هذا الكاتب . ولن يجد صعوبة كبيرة في مسعاه ، فمن المؤكد ان هناك كثيراً من الوثائق والتصريحات الصهيونية التي نطقت بعبارات رقيقة وانسانية تجاه الفلسطينيين والعرب عموماً . فضلاً عن ذلك فان كثيراً من المظاهر والاتجاهات والاعراض التي صاحبت الحركة الصهيونية موجودة في الحركات الأخرى غير العنصرية ، بل وحتى في الحياة اليومية لأي انسان عادي . فالحنين إلى الطبيعة والتأكيد على الزراعة والجنوح إلى الرومانطيقية والوقوع في التشاؤمية والثالية واللاعقلانية ، كلها ظواهر متوافرة في حياة وآداب جموع لا حصر لها من البشر . كما ان من المنتظر ان تعود إجراءات مختلفة من إجراءات التفرقة والتضييق ضد الفلسطينيين إلى حالة الحرب والاضطراب التي تشعر بها القيادة الصهيونية .

وإذا كان نيتشه قد ترك أثره في الفكر الصهيوني فقد وقع في سحره عشرات الاوربيين من فرويد إلى توماس مان . وإذا كانت « إرادة القوة » قد سحرت هرتزل فترجمها في شعاراته فانها قد سحرت مفكراً عالمياً مثل برناردشو فترجمها بفكرة « قوة الحياة » . وبالإضافة إلى هذا فلم يكن نيتشه ولا ترتشكه من المفكرين الذين شغلوا بالهم بالعنصرية . ومن الواضح أيضاً ان منظري الصهيونية لم يفلسفوا موضوع العنصرية أو يعطوه مكاناً خاصاً في حساباتهم .

وعلى النطاق التطبيقي ، اعتذر الصهاينة عن التمييز الواضح في معاملة العرب واليهود بالإشارة إلى الضرورات والتناقضات التي واجهتها الحركة الصهيونية على مسرح الأرض الفلسطينية والتي لم تترك لها أي خيار غير مقاطعة العرب والتمييز ضدهم في المعاملة . كما ان حالة الحرب المستمرة والطوارئ والتهديدات التي جابهها الكيان الصهيوني فرضت اتباع أنظمة الطوارئ والأحكام العسكرية التي خرقت الأسس المقبولة في ميدان القانون والحقوق الانسانية المدنية .

ويمكن ان يقال مثل ذلك عن أحوال اليهود الشرقيين . فما لا شك فيه ان الهوة الحضارية بين عائلة مهاجرة من اليمن أو ليبيا وأخرى من كاليفورنيا أو النمسا تجعل تعايشهما في محيط واحد وعلى مستوى واحد وتوقعات واحدة أمراً في غاية الصعوبة . وفي غاية الصعوبة أيضاً أن يتصور أحد أن على قائد القوة الجوية الاسرائيلية ان يستجيب لقواعد المساواة ويسلم طائراته الالكترونية في معركة مصيرية إلى باعة الفجل والبنجر من المهاجرين من أحياء ابوسيفين وسوق حنون في بغداد .

الأساس العلمي للحكم على عنصرية الصهيونية ، كما هو الحال بالنسبة لأي نشاط بشري سياسي أو غير سياسي ، يقوم على تراكم الظواهر والاعراض والوقائع عبر فترة زمنية كافية . ان وجع الرأس ليس دليلاً على وجود ورم في الدماغ ولا الغيوبة أو اضطراب الذهن ، أو اختلال التوازن أو

فقدان البصر أو انخفاض الوزن . ولكن تظافر هذه الاعراض عبر فترة زمنية كافية يشير إلى مثل هذه العلة .

لقد مارست الصهيونية التمييز العنصري ضد العرب عبر قرن من السنين أو نحو ذلك . وفي كل فصل من فصول هذا التمييز كانت تقدم عذراً أو آخر ، وبقيت حتى الآن عاجزة عن الوصول إلى صعيد تضع فيه المواطن غير الاوربي الاصل على قدم المساواة مع الاشكنازي الاوربي ، وتصحح هذا الحلل المشين .

ولكن على الرغم من كل هذه الممارسة العنصرية المستمرة ، فان الصهاينة لم يتركوا وراءهم غير القليل من الوثائق والفكر النظري في هذا الميدان ، كما فعل النازيون . ويظهر ان منظري الحركة الصهيونية لم يجدوا أنفسهم في حاجة إلى التعبير عن الاسس العنصرية لايدولوجيتهم كما وجد الآخرون . لقد لاحظ منظرو الصهيونية وزعماءها ان هذه الاسس موجودة مسبقاً ومرسومة بتفاصيل كافية تمتد جذورها إلى أكثر من ألفي سنة ، وتجعل أي مزيد من القول لغواً لا مبرر له وفيه كل الخطر والحذر .

وبوضع الصهيونية في هذا المنظور التاريخي يستطيع المتبع ان يفهم بصورة أوضح مدى صحة الاتهام الذي وجهه الناطقون العرب ضد الصهيونية والاسس الموضوعية التي يقوم عليها قرار منظمة الأمم المتحدة في إدانتها بالعنصرية والتمييز العنصري .





الفهرست

الصفحة

الموضوع

مقدمة

٥

١١

: عنصرية سامية

الفصل الأول

٢٠

: العنصرية الآرية والكولونيالية

الفصل الثاني

٢٨

: الفكر العنصري في القرن التاسع عشر

الفصل الثالث

٥٠

: العرق ونقاء العرق والتفوق العرقي

الفصل الرابع

٦٠

: أبعاد المدرسة العنصرية

الفصل الخامس

٧٦

: نيتشه وترتشكه

الفصل السادس

٩٥

: العنصرية الصهيونية في التطبيق

الفصل السابع

١١١

: إسرائيل وأبناء حام

الفصل الثامن

١٢٣

: مسألة اليهود الشرقيين

الفصل التاسع

١٣٣

خاتمة

١٩١٥٨٨